القسم الثالث

في الفقراء

من هم الفقراء

الفقراء من الوجه الاجتماعي هم الامة كلها لا حتياج الناس بعضهم الى بعض كما قال المتنبي

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وان لم يشعروا خدمُ

ومن الوجه الادبي هم مظهر البلاد . عوائد واصطلاحات وعواطف واحساسات ومن الوجه المادي هم معاملتها وعملتها الدارجة . ومن الوجه المعنوي هم سمعها وبصرها وعصبها الحساس . ومن الوجه المدني هم سورها المحيط بها . فتعال معي ايها المصري او ايها الانسان المهذب الغيور على امتك و بلادك او الغيور على بني الانسان في كل بلاد الله . والقِ نظرة الى كل وجه من هذه الوجوه واشفعها بنظرة الى حالة الفقير في البلاد المصريّة وقل معي . ولكن في أُذني لاني واثق بانك سترى ما رأيتهُ وتقول ما استحي ان اجهر بهِ امام الناس . شعب ولكنهُ ليس بحي . ومظهر يدل على الجهل . معاملةٌ سيئة . وعملةٌ زائفة . آذان لا تسمع . واعين لا تبصر . وعصب لا يحس . سور ولكن يا للاسف لا يحفظ ما احاط به ولا يدفع عنهُ اذى . اذا وقفت على ذلك فهل من دواءٍ لهذا الداء العضال المهلك للامة باسرها ؟ ؟ . أجل ولكن يلزم معرفة السبب حتى يكون

الدواء نافعاً للداء . سبب ذلك هو الجهل ولا دواء لهُ الاَّ العلم . فاجمل ما فصلت . وقل في تعريف الفقير المصري هو الجاهل وناد معي بين ذوي الاموال اصحاب الشهامة والغيرة على الانسانيَّة مستصرخاً مستنصراً لهذا الجاهل لعلَّ هذا الجزء الغني الصغير يرحم نفسهُ بالابقاء على هذا الجزء الفقير الكبير الذي هو مظهرهُ وسمعهُ وبصرهُ وعصبهُ وعملته وسورهُ ولاتكون مبالغاً اذا قلت حولهُ وقوتهُ بل حياتهُ

وما أراك بمؤمن لي على افتقار هذا الفقير واحتياجهِ الكلي لالتفات اهل الغنى واليسار واعتنائهم بهِ وتسهيلهم لهُ ابواب العلم ليعرف ويستفيد فيستفيدون من وجودهِ اكثر . فاسمع لأَقص عليك احوالهُ الاجتماعيَّة واحدة واحدة كما هي بدون زيادة من ساعة ولادتهِ الى حين موتهِ من تربية وتعليم وزواج وطلاق واعراس واحزان وصحة ومرض واوهام وخرافات الى غير ذلك مما ستسمعهُ وتقول ما أنبئت بمثل هذه الجهالات في الغابرين

زواج الفقراء

قال عليهِ السلام " الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ وبينهما امورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس "

المصري الفقير يتزوج وهو صغير السن وكذا المصريَّة الفقيرة ايضاً . والدافع لزواجهما في صغر السن اغلبهُ ميل الأَب والأُم لستر عرضهما في حياتهما ليطمئن خاطرهما . وهذا سبب ما نراهُ فيهما وهما كهلان من انهما اباءٌ لعائلات كبيرة وافراد كثيرين وفي هذا بحث اجتماعي لا يستخف بهِ " لأَن من ورائهِ تكوين العصبيَّة القوميَّة وحبذا هي لو أُدركت بالمعنى الصحيح "

والمتأَمل يجد من وراء هذا الزواج ما يدعو للعفة والصون وحبذا ذلك لو تمَّ للفقير مع الوفق والراحة

اما طريقة الخِطْبة عند الفقراء فهي كما عند الاغنياء والوسط اي بواسطة تكليف الأُم او الأُخت او احدى الجيران من الحريم ان كان الزوج لا اهل لهُ بالبحث عن ابنة . حيث لا يمكنهُ بنفسهِ ان يخطب لعدم تمكنهِ من نظر البنات فتتوجه المكلفة بذلك الى البيوت التي فيها البنات وتتقدهم نقد الصيرفي للدنانير وتشم رائحة فمها وصدرها وتنظر كعب رجلها فان كان مثل المرجله " القبقاب " تكون المخطوبة سعيدة والاَّ كانت بخلاف ذلك . الى ان تستحسن ابنة فتتوجه الى العريس وتبتدي تمدح لهُ قائلة . (لها وجه مدور " كالصنيَّة " وشرطة عين مثل " الفنجال " وأنف مثل " النبقة " وفم " كخاتم سليمان ") وبناءً على هذا الوصف يرغب العريس في الزواج معتقدًا في من كلفها بالخِطْبة الحق وحسن النظر وطهارة الذمة

اما افراح الفقراء فجميلة على الغالب ولو انها على غير نظام لطيف اذ يظهر على اوجه حاضري الفرح مع بساطتهم السرور واي فرح اشرح لصدر حاضرهِ من ان يرى الرجل الفقير على فقرهِ وبساطتهِ[1] بين اولاده واقاربهِ وانسبائهِ وصحبه من جيرانهِ وغيرهم قائمًا بخدمة مدعويهِ . كما تكون امرأتهِ كذلك بين النساء هاشة باشة بين صبيَّة وشابة وامرأة وجدة تعتني بهنَّ ويعتنين بها والكل يخدم بعضهم بعضاً من حمل ملابسهم الى نقل ما كلهم الى رفع ما يغسلون بهِ ايديهم . لا تكليف بينهم بل كلهم في الفرح والسرور منغمسون . وان شاءت المدعوات الرقص ترقص اولاً لهنَّ ربة العرس وان شئن الغناء غنت في مقدمتهنَّ اذ لا يعكر صفائهنَّ سوى ارتفاع اصواتهنَّ وجهلهنَّ بالقناعة التي كثيراً ما تخرجهنَّ الى

(١) البساطة مصدر بسط . وهي الدالة والسذاجة . فالرجل البسيط حسب التعريف اللغوي المتهلل الوجه الكريم اليدين الطاهر القلب الساذج الاخلاق العديم الدهاء

طريق الاسراف فتخرج بهنَّ البساطة وسلامة النيَّة الى الشره في الطعام والزهو في الملابس وفي انواع الفرش والآنية التي كثيرًا ما يجمعون كثيرًا منها حتى يضيق نطاق البيت ولو كان رحبًا ذا سعة . مع ان اشياء كثيرة يمكن الاستعاضة عنها بشيء آخر نافع للزوجة عند الاحتياج

وامر الزواج لا يتم من غير عقد يتولاهُ احد مأذوني الشرع الشريف ليقيدهُ في دفتر العقود . ويسمع الاشهاد على الطلاق ان كانت الزوجة ثيبًا او غير ذلك ان كانت بنتًا بكرًا . ولا يكون ذلك الاَّ بعد الاتفاق بين الزوج وولي امر الزوجة على الصداق الذي يدفع ثلثاهُ ويؤخر الثلث الباقي فاذا تم الاتفاق على الصداق بين يدي المأذون او سمع الاشهاد على الطلاق وحصلت عقدة النكاح حلت الزوجة للزوج شرعًا . واخذت العائلة في اعداد ما يلزم وقدمت الاقارب الهدايا امامهم قبل التوجه اليهم . وهذه الهدايا وان كانت مساعدة للزوج بحمل اثقال بعض المصروف ولكنها دينٌ ووفاءٌ يقوم بهِ عند الفرص المناسبة لذلك ثم يبتدئُ الفرح الذي كثيرًا ما تدوم مدتهُ اياماً عديدة قبل ليالي الحناء " والزفاف " فان العادة قبل ذلك ان يحيوا ليالي يدعونها " الضمم " فيها الغناء والطبل والمزمار على فنون شتى الى ان يكون ليلة " الحناء " فيجيء اهل العروس ليلتهم على حسب مقدرتهم . ثم في ثاني يوم يستعدون " للزفاف " الذي يحضر في ليلتهِ الزوج واهلهُ لاخذ العروس لدارهِ . وفي هذا " الزفاف " تظهر حالتهم وتهذيبهم ومقدار ترقيهم " وفي الحقيقة مظاهر الجهل والحماقة " وفي مقدمتها المصارعون الذين هم عراة الاجسام . وما يسمونهُ بابن " رابية " وجماعتهُ المشهورون بالخلاعة واحط اوصافها ثم من بعدهم جماعة الطبول ممن يسير على الارض وممن هم على جمالهم يقرعون الاذان ومن خلفهم " التخترونات " واحيانًا كثيرة تجد جماعة ينشئون قهاوي الحشيش

على عربات النقل معرشاً عليها بسعف النخيل وغير ذلك مما هو دال فيهم على حب الهوى والميل الى التهتك وما يشمئز منهُ المرء العاقل ويداري وجههُ خجلاً وحياءً . لان في ذلك مدعاة لازدراء الغير بنا وحكمهِ على مجموع الامة غنيها وفقيرها انها في منتهى الاسراف والتبذير في غير وقتهِ ومحلهِ . هذا ولا نذكر ما يحصل امام هذه " الزفف " من المشاجرات والمشاحنات وغيرها بين الشبان وبعضهم مما يؤدي احياناً كثيرة لتعكير الصفاء وما لا تحمد عقباهُ

غير انهُ اذا سلم الله ووصلت " الزفة " الى دار العريس تستقبل العروسة بالاحتفاء والتكريم والتحية والتسليم من جماعة الاهل والمعزومين " وتزف " العروسة ليلاً بنقلها من جهة الى اخرى داخل الدار . وبعد " الزفة " يوضعون لها وسادة في القاعة التي نقلت اليها اخيراً ويجلسونها ووجهها مغطى بشيء كثير من " التُلّي " ومن اصناف الزينة والجواهر التي ربما تكون قدر اوقيتين او ثلاث او اكثر . ثم تتقدم " الماشطة " وتفرد على حجر العروسة " شاورة " مشغولة الاطراف بالمقصب وتقول " يا حبايب العروسة ومشطتها " فتتقدم ام العروسة وتلقي في " الشاورة " جزءاً من المال وبعدها يتقدم المعازيم ويحذون حذوها وكل يلقي على قدر طاقتهِ فيكون المجموع عبارة عن نقطة " للماشطة " وبعد ذلك تأتي " العالمة " وتفعل فعل الماشطة [1]

ثم تمد الموائد للمدعوين والمدعوات رجالاً ونساءً وفيما هم في وسط الاكل يجيء صبي الطباخ ومعهُ " زبدية خضراء " او " مغرفة " ويوضعها في وسط المائدة فيلتزم الرجال والنساء ان " ينقطوه " كما سبق وتقدم بيانهُ وتنتهي الحالة بان

(١) اسباب جمع نقطة " الماشطة " هي انها تغسل للبنت من يوم ولادتها الى ليلة عرسها مجاناً طمعاً بما ينالها من " النقطة " في هذه الليلة

" يزف" العريس ايضاً بين صحبهِ واخوانهِ بالشموع وغيرها حتى اذا آب العريس من " زفتهِ" بسلام يصعد الى دارهِ فاذا عروسهُ مهيأة لقدومهِ فيدخل عليها ويقبلها وهي تقبل يدهُ وبعد ان يقدم لها هديةً كشف الوجه وتكون نقوداً على الغالب ويعطي " الماشطة حلوانها " يلف " الشورة "على اصبعهِ السبابة وهي خام بوبرها الخشن ويمسكنها لهُ " الماشطة " والاقارب . فاذا ما نعت او جفلت من مطلبهم يستنجد الزوج بهنَّ فيشددنها الى سريرها ويمسكونها قسراً بايديهنَّ من اليدين والرجلين ليتم هذا الجاهل عادة يحسبها فخراً لهُ وهي في الحقيقة اهانة لهُ وضرر لزوجتهِ وربما كانت سبباً لشقائها الابدي فان كثيراً من النساء يصبنَ من هذه العادة بامراض عصبيةً ورحمية تقلق راحة المرأة طول حياتها . واقرب شيءٌ تصاب بهِ العرائس من هذا الفعل الوحشي داء (الهستيريا) " الصرع" وسببهُ الجهل المطبق وتملك العادة وان شئت فقل سوء الظن في بكر يعلم الله انها مصونة العرض . واني اذكر ان عروساً ماتت في الصعيد وهي بين يدي عريسها الفظ الغليظ . وقرأت مرة في رسالة الاسكندريةً لاحد مراسلي الجرائد من امد ليس ببعيد ان العريس دخل على عروسهِ بهذا الشكل فكان آخر عهدهُ بها اول دقيقة من لقياها [1]

وعلماء الطب يقولون ان هذه العادة تكون سبباً للنزيف الدموي ولتمزيق الرحم فمن لنا بمن يعرف الفقراء ضرر ذلك بدلاً من تفهيمهم السياسة التي برعوا فيها حتى لا يتسببوا في مجلبة المرض . ولا يخفى عليك عيشة الازواج لو كانوا كذلك من قبل يحملون في اجسامهم الامراض والعاهات الخبيثة ويقدمون على الزواج قبل برئهم منها . لا شك انهم يلدون اولادهم وهم في حزن وغم دائمين فلا

(١) نحن لا ندري كيف تطرقت هذه العادة الينا معشر الاسلام. ولربما كانت مقتبسة من الدخلاء في الاسلام او من المصريين القدماء حيث لا تعرف الاَّ بين المصريين فقط

يكونون اصحاء او فيهم الاهليَّة لاعمال تنفعهم في مستقبل ايامهم ولا شك ان هؤلاء في عرف العقلاء اعظم الجناة فان جنايتهم تعم الهيئة الاجتماعيَّة ودون ذلك القاتل والمنتحر

اما المعيشة بين الزوجين الفقيرين فانها اما ان تكون دائمة لتماثل الطباع وائتلاف الامزجة واما ان تكون على ضد ذلك . فان كانت الاولى "وهي القليل" فراحة فطريَّة ومعيشة بسيطة يحسدهم عليها من هم اعلى منهم طبقة حتى الاغنياء . وان كانت الثانية فسكون شهر وقلق دهر — لاسباب كثيرة اهمها عدم معرفة الزوجة القيام بواجبات الزوج مع مراعاة الاحترام لوالدتهِ بنوع اخص واطاعتها في ما تأمرها بهِ . والاستسلام لاوامرها . وان كانت بغلاظة وفظاظة . ثم صغر سن الزوجة ودخول الجيران بينها وبين حماتها وغيرة الحماة على ولدها مشهور امرها . فتختلق الهفوات لها فتضربها وتشتمها وتسبها لاقل سبب وام ولا تألو كلتاهما جهداً من اظهار الاسف والندامة ولعن الساعة التي فيها تناسبتا . كل ذلك يحصل يومياً بدون انقطاع فتربو بينهنَّ الضغينة والكره وتسوء العشرة في زمن قليل فتشكو الام لولدها زوجتهُ وتظهر لهُ نقايصها ومعايبها . وكذلك الزوجة تشتكي الحماة لزوجها فتسوء الحياة بينهم جميعاً ويتمنى كلاً منهم البعد عن صاحبهِ . ولا يخفى ان للنساء الضعيفات قوة عجيبة في الدهاء والكذب بهما يبلبلنَ الخاطر ويخفضنَ ما شئنَ في اعين من شئنَ . والرجل الصانع او المحترف الفقير لا تميز عندهُ ليتلافى هذه الاسباب فيستسلم على الاكثر لارادة والديهِ لانهما هما اللذان زوجاهُ بمالهما فيرضخ لاشارتهما

فاما ان يأمراهُ بالطلاق فيطيع امرهما او بزواج زوجة أخرى لتكيد

الاولى ولتكون سبباً لتنغيص عيشتها وهنا تكون سيطرة الجهل على الجهل[1] والفقراء في هذا القطر يميلون كثيراً للاكثار من الزواج وخصوصاً اهالي القرى منهم فان العامل الذي لا يكسب قوت يومهِ الاَّ بشق النفس يجمع بين زوجتين او ثلاثًا او اربعاً واذا طلق واحدة منهنَّ تزوج بغيرها على الاثر فتكثر عائلتهُ وتقل حيلتهُ وتفسد معيشتهُ فيعاملهنَّ بسوء المعاملة وخشونة الطباع حتى ان بعضهنَّ يتمنين الموت تخلصاً من شراسة الازواج[2]. وامر الطلاق صعب على النساء كما هو صعب على الرجال وعدم مقدرتهم على التصرف فيهِ بالحسنى يؤدي بهم كثيراً الى الاضرار ببعض ولهم في امور النفقة من الأَلاعيب الشيطانية شيءٌ كثير فتلجأُ الزوجات المطلقات الى المحاكم الشرعيةَّ وكثيراً ما تصدر الاحكام على الازواج بنفقات زوجاتهم واولادهم فتبقى حبراً على ورق ولا تنفذ لضيق ذات اليد . ومداخلات مأذوني الشرع في ذلك مما يستحى من ذكرهِ وعلى الاخص في تضييع حقوق المطلقات

(١) من الروايات المحزنة حكاية امرأة حكمت عليها محكمة الاسكندرية بالسجن ١٥ سنة وقد كانت هذه المرأة زوجة فلاح من مديرية البحيرة والرجل زوجة أُخرى فطلق احداهنَّ يوماً ثم خطر في بالهِ ان يعيدها الى بيتهِ فخافت ضرتها من المناظرة والمسابقة وجعلت تدس الدسائس حتى اذا احست المطلقة بتدابيرها عمدت الى الانتقام منها بوضع شيءٍ من السم في حلوى اعدتها واهدتها لابن الضرة فأَكل الولد الحلوى ومات وارادت الثانية ان تنتقم من خصيمتها المطلقة فدست السم في نوع من الحلوى ايضاً وقدمتهُ لابن عدوتها فاكلهُ ومات ايضاً فالقت الحكومة القبض على الجانيتين وحكمت المحكمة على المطلقة بما ذكرنا لانها اقرت بذنبها ولكنها برأت الثانية لانهُ لم يثبت عليها شيء. وهذه الحكاية المؤلمة بموت الولدين وسجن احدى الزوجتين عمراً طويلاً علتهُ زواج الاثنتين وسيطرة الجهل على الجهل

(٢) حدث في سنة ١٩٠٠ في جهة الدرب الاحمر بالقاهرة ان امرأة اشترت جانباً من الكبريت واذابت رؤوسهُ في الماء ثم تعاطتهُ ولما ادركها الطبيب وسئلت عن قصدها قالت انها تقصد ان تريح نفسها من سوء معاملة زوجها لها

هذا وفي النساء المطلقات الفقراء حدثت بدعة ترك ازواجهنَّ متى شأنَ ذلك وهنَّ ليطلقنَ انفسهنَّ بانفسهنَّ غير منتظرات طلاق الرجل لهنَّ ولداعي قلة الصداق بينهما تبرأُ المرأة منهنَّ رجلها وتحمل عفشها ذاهبة الى حيث شاءت وهذه العادة انتشرت بينهنَّ كثيراً ولا رادع لهنَّ من رجال الشرع . وكثيراً ما تمكث احداهنَّ مع هذا اسبوعاً وتبرئهُ ومع ذاك اسبوعاً وتتركهُ عابثات بالشرع عابثات بالدين مجلبات للسخط والعار على الامة بفعالهنَّ

ولمعترض يقول كيف يكون ذلك الزواج شرعيٌّ وهو لا بدَّ من وقوعهِ على يد مأذون الشرع . فنقول ان لماذوني الشرع تحليل بذلك وهو ان يتفق مع الزوج والزوجة على كتابة العقد بينهما على يد جماعة من الاسافل ولكن لا يثبتهُ في دفترهِ الاَّ بعد مضي ايام (العدة) . كما حدث ذلك في جهة باب الشعرية من مدة سنة وجهة بولاق من سنة ونصف . ولا يقتصر ضرر ماذوني الشرع على ذلك واليك قصة حدثت في حي من احياء العاصمة . وهو ان ماذوناً شرعياً عقد نكاح امرأة على رجل على صداق دفع عاجلهُ وبقي في ذمتهِ آجلهُ وبعد قليل من الايام قابل الماذون رجلاً آخر يهوى المرأة وترامى على قدميه بعد تقبيل يديه شاكياً باكياً مما في قلبهِ من الهيام والوجد . وطالباً منهُ ان يرفق بحالهِ فاجابهُ الماذون لا باس عليك ان صليت على النبي (يعني بذلك طلب الحلوان) او وحدت الله (يعني بذلك ان يحافظ على السر حفظهُ على توحيد الله) فوعدهُ واغلظ في اليمين انهُ لا يبوح بالسر ولا يمين فساومهُ الماذون حينئذٍ على المبالغ المطلوب فاعطاهُ اياهُ ثم عقد لهُ عليها فاصبحت المرأة زوجة لرجلين فوقع النزاع واخذ كلٌّ منهما يشكو حالهُ وبلغ الامر المحكمة الشرعيَّة وما فعل الماذون فاستدعت الرجلين والمرأة وسمع القاضي حكايتهم

وبعد ما افرغ القاضي ما في جعبتهِ من الوسائط الشرعيَّة اجاز للمرأة ان تختار احدهما زوجاً لها من الاثنين فاختارت من تهواهُ ويهواها [1] . وكان جزاء المأذون اخذ الدفتر منهُ وتوقيفهُ عن العمل . حصل ذلك في العاصمة واقبح منهُ ما حصل في اواخر شهر نوفمبر في الاسكندريَّة حيث تزوجت وطنيَّة برجل من هالي « حارة الراكشي » وبعد الزواج وجد ان الزوج خدعها بتواطئ مع مأذون الشرع وحقيقتهُ انهُ مسيحي فرفع الامر الى فضيلة القاضي هناك ليفصل اشكالهُ . وارزل من ذلك يتكرر كثيراً في القرى والبنادر بفضل الماذونين

وقد جاء في عدد ٣٤٥٧ من المؤيد الاغر الصادر في يوم الاربعاء ٢٧ جماد الاولى سنة ١٣١٩ في رسالة مكاتبهِ بملوي ما ياتي بالحرف الواحد — بلغ من بعض مأذوني الشرع المفسدين انهُ عقد لرجل على امرأة بعدان طلق ابنتها التي كان تزوج بها ومضى على هذا المنكر السيء ثلاث سنين ولدت المرأة فيها ولداً ولما سئل الرجل عن ذلك ادعى انهُ يجهل حرمة هذا الامر والقضيَّة منظورة بالمحكمة الشرعيَّة

ولقدحقق لنا تواتر السماع ان كثرة الطلاق الفاشية جدًّا في قطرنا السعيد دون قيد تقريباً هي التي تحمل كثيرات من المطلقات الفقيرات على اذلال النفس وارتكاب السوء فيطنَّ للتكفف في الطرق العموميَّة . او يضطررن الى سلوك سبل الغواية ودخول بيوت الفجور . وليس من دافع لهنَّ الاَّ الفقر والجوع . و بهذه

(١) ومن المضحك ان احد اهالي "سنباط" حضر الى المحكمة الشرعية مستفتياً بانهُ يعشق امرأة هي زوجة لاحد اصدقائهِ الذي هو مفتون بزوجتهِ وقد اتفقا على ان يتنازل كلاهما للآخر عن زوجتهِ على هيئة بدل وعوض الاَّ ان زوجة المتظلم حاملة ويرغب عوض حملها "حمارة" زيادة على لزوجة المبادل بها فهل يجوز الشرع اجراء هذا البدل ام يمنعهُ فضحك عليهِ المسؤول . وهذا يدل دلالة صريحة على تقدير المرأة في نظر عامة المصريين — انظر جريدة الوطن ٦ مارس سنة ١٩٠١ عدد ١٩١٩

الواسطة يهملن اولادهنَّ في الطرق والشوارع فيربون على المبادىء الدنيئة والاخلاق الفاسدة وتقوى فيهم الرذيلة وحب الشر فيخرج منهم المتشرد واللص والقاتل وغيرهم من محاربي الهيئة الاجتماعيَّة

وقد تنبه رجال الضبط والنيابة العموميَّة الى كثرة المتشردين الذين لا عمل لهم والمهملين من الاحداث في هذا القطر فقاموا يعالجون ذلك بسن اللوائح للمتشردين وانشاء السجون للاحداث [1] وغير ذلك مما فيهِ مقاومة الضر وتقليل الشر . ولكن فاتهم ان الشفاء الحقيقي من هذا الداء لا يكون الاَّ باستئصال اسبابهِ ولا يتم ذلك الاَّ بمنع الفقراء من جمع عدة نساء في عصمة واحدة ما داموا لا يستطيعون الانفاق عليهن خصوصاً وان ضرر ذلك لا يقتصر على الازواج واولادهم بل يلحق الهيئة الاجتماعيَّة كلها . ولقد احصى بعضهم الاحكام الشرعيَّة التي صدرت على الازواج بنفقات زوجاتهم واولادهم فوجد ان ما نفذ منها لا يزيد عن ثلاثة او اربعة في المئة والباقي بلا تنفيذ لعسر المحكوم عليهم وشدة فقرهم وعوزهم

ولا تظنن الطلاق الذي هو اكره الحلال عند الله قليلاً نادراً فقد ذكر القاضي الفاضل قاسم بك امين في كتابهِ " تحرير المرأة " ان كل اربع زوجات في مدينة القاهرة ليطلق منهنَّ ثلاث . فهذه حال الزواج والطلاق بين الفقراء في هذا القطر وقد ادرك حضرة مولانا الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده اضرار ذلك ونبه عليهِ في تقريرهِ عن اصلاح المحاكم الشرعيَّة باقوال يجب ان تسترشد الحكومة والامة بها في رتق هذا الفتق فقال ما نصه " انني ارفع صوتي في الشكوى من

(١) سجن الاحداث ببولاق في ارض مجاورة للنيل عدد من فيهِ ١٣٠ ولداً يتعلمون فيهِ القراءة والخط والحساب والقرآن الشريف وصناعة الجلود والنجارة والحديد والصفيح وحبذا لو انشئ مثل هذا السجن في الاسكندرية ايضاً وباقي عواصم المديريات .

كثرة ما يجمع الفقراء من الزوجات في عصمة واحدة فان الكثير منهم عنده اربع من الزوجات او ثلاث او اثنتان وهو لا يستطيع الانفاق عليهنّ ولا يزال معهنّ في نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجيّة ولا يزال الفساد يتغلغل فيهنّ وفي اولادهنّ ولا يمكن لهُ ولا لهنّ ان يقيموا حدود الله وضرر ذلك بالدين والامة غير خافٍ على احدٍ " ثم وصف العلاج الشافي من ذلك فقال حفظهُ الله " واما الضرر الذي ينشأ من كثرة الزواج التي ولع بها الفقراء من سكان القرى وهو من الضربات المعطلة لاعمالهم المفسدة لشؤونهم وشؤون اعقابهم فأرى لتلافيهِ ان يلزم كل مأذون ان يسأل قبل عقد زواج اي شخص غير معروف بالثروة هل لهُ زوجة اخرى . فان كان لهُ فما هي الطريقة في الانفاق على زوجاتهِ واولادهِ ويثبت جميع ذلك في ورقة العقد ثم يحدَّد حدٌّ معين من الثروة لمن يتزوج اكثر من واحدة متى كان غير معروف بانهُ من اهلها على انهُ لو ذكر في كل عقد من عقود الزواج وسائل معيشة الزوج من كونهِ صاحب ملك او تاجراً او صانعاً او عاملاً كان ذلك ادعى الى تضييق دائرة الضرر ولا شيء من اصول الشريعة يأبى ذلك وهو من قبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا احق بهِ من القادر عليهِ والحاكم هو اقدر الناس عليهِ

ومن المعلوم في احكام الشريعة انهُ متى تحقق ان الزوج لا يستطيع الانفاق على زوجتهِ وان الزواج يفسد امر معيشتهِ ويلجئهُ للخروج عن الحدود التي حددها الله لهُ حرم عليهِ الزواج بلا خلاف فاذا وضعت لذلك قواعد وجب ان يراعى فيها جميع ما نصت بهِ الشريعة المطهرة وما يقر عليهِ رأي علمائها " فحبذا لو تعير الحكومة هذا النداء اصغائها وتسعى مع علماء الدين في تدبير حميد يقي الامة والبلاد غائلة هذه الآفة التي تعاظم شرها وتفاقم ضررها

الفقراء واطفالهم

اذا تماثلت الطباع وأتلفت الامزجة بين الزوجين الفقيرين ولم يحل بينهما الطلاق المتقدم ذكرهُ وتعدد الزوجات المتقدم بيانهُ عمرًا الى ما شاء ربك وانتجا الذريَّة فيلدون اولادهم ضعافًا مهازيل فلا يعيشون الاَّ وتظهر عليهم علامات الكساح او يهلكون صغارًا لعدم الاعتناء بهم الاَّ اذا وهبوا قوة المقاومة وفازوا على الامراض واسباب ذلك وعدم الحنو عندهم على الولد عدم العناية بهِ لديهم الاَّ بالخرافات فان الوالد لا عناية لهُ بولدهِ حال طفوليتهِ والمتصرفة فيهِ هي أُمهُ تختار لهُ الاسماء عند تسميتهِ وتطببهُ ان مرض وتقمطهُ وترضعهُ اذا عرى او جاع وهذه الام لاجل تسميتهِ تحضر ليلة الاسبوع ثلاث شمعات وتسمي كل شمعة باسم خاص وتنيرها ليلاً وفي الصباح تسمي ولدها على اسم الشمعة التي تكون قد بقيت اكثر من غيرها . ثم توضعهُ في (غربال وتحتهُ شيءٌ كثير من الحمص والبندق) وتغربله ولا ندري ماذا يلحقهُ من جراء ذلك فنترك ذلك التشخيص لرجال الطب ليبدوا ملحوظاتهم فيهِ

تعليم الام ولدها الكلام

متى ابتدأ انتباه الطفل قليلاً لما حولهُ تبتدي تعلمه أُمه الكلام بالفاظٍ بذيئة قبيحة يشب عليها وينمو وتكون سبباً لتأصل الاخلاق والصفات القبيحة فيهِ ومدعاة لميلهِ الى الرذيلة

تخويف الامهات لاولادهم

اذا بكى الولد او اراد النزول من السلالم ليلعب خارج البيت تخوفهُ أُمهُ وتحذرهُ من (السماوي) والمغربي لئلا يأخذهُ عندهُ ليعلقهُ من رجليهِ فوق

دست ماءٍ يغلي على النار ويسقي دمهُ «وقصدها بذلك عدم ابتعاد الطفل عن البيت لئلا (يتوه). ومع ذلك فاولادهم (يتوهون) بكثرة ويطلقون وراءهم المنادين او يبلغون عنهم رجال البوليس [1]» وتحذيرهُ من انهُ لو ذهب الى البحر يبتلعهُ التمساح (وتريد بذلك عدم تعويد الطفل على الذهاب الى البحر خوفاً عليهِ من الغرق) ولا يخفى ما ينتج ذلك من الجبن على النفس. والجبن عرَّفهُ الفضلاء بانهُ انخذال في النفس عن مصادمة عارض لا يلائم حالها. والفقراء لا يتحدثون امام اولادهم الاَّ في النوادر المخيفة ومدار حديثهم على (العفريت) (والمارد) (والمزيرة) وما اشبه. فما يقولونهُ على (المارد) انهُ يظهر ليلاً للانسان ويسد عليهِ اربع جهات طريقهِ بحائط. وما يقولونهُ عن (المزيرة) انها جنيَّة وكل اجسامها ابر ومسامير وتظهر بزي امرأة جميلة مزينة بالحلى ومرتدية إزاراً ابيض كالثلج اذا قرب منها الانسان تضمهُ اليها وتختفي بهِ. وما يقولونهُ عن (العفريت) فشيءٌ كثير كنا نخوف منهُ حال الصغر ونسمع ان اشكالهُ متنوعة فتارةً يظهر شبه حمار

(١) جاء في تقرير سعادة هرفي باشا عند ما كان حكمداراً للعاصمة ان عدد البلاغات التي قدمت في سنة ١٨٩٩ م ٢٩٥ وجد منهم ٧٤ قبل تحرير ارانيك البحث عنهم و ٢٢١ بحثوا عنهم فما وجدوا سوى ٤١ والباقين ١٨١ لم يعثر عليهم وفي التقرير المذكور حادثة منها يتبين مقدار الصعوبة التي يعانيها البوليس في الاستقصاء عن اقارب هؤلاء الاولاد وهذه الحادثة هي. ان بنتاً عمرها اربع سنوات وجدها البوليس في بولاق فبعد البحث عن اهلها عدة ايام استدل على والدتها التي كانت ساكنة في فم الخليج فلما جيء بها الى المحافظة انكرت معرفتها بالبنت كلية ولكن لما ادخلت البنت في المكان الذي كانت والدتها بهِ ورأتها اسرعت اليها وتعلقت باذيالها فدفعتها المرأة وادعت انها لم ترَ البنت المذكورة من قبلُ واخيراً لما استحضرت تلك المرأة امام سعادة المحافظ وصار تهديدها اعترفت بان البنت هي ابنتها. ويظهر ان المرأة المحدث عنها كانت تزوجت حديثاً ولامتناع زوجها الجديد عن قبول البنت فعلت ما ذكر مرضاةً لخاطرهِ

عال ابيض فيركبهُ الانسان حتى يعلو بهِ ثم يقذفهُ من فوق ظهرهِ فيسقط على الارض مهشماً . وتارة انهُ شبه قط او كلب او قربة . وبعضهم يقول في وصفهِ انهُ اسود كالليل طويل القامة وعيناهُ بالطول يقدح منهما الشرر

بهذه الخرافات التي يخوف بها الوالدين اولادهم ينمو في اذهان الصغار الجبن والخوف والرعب حتى انهم لا يمكنهم الانتقال ليلاً ونهاراً خطوة الأمع احد خوفاً من حادث يفزعهم ولو كان شخصاً مقبلاً عليهم من بعيد كما حدث ذلك في السنة الماضية في حي من احياء العاصمة [1] ولا يقتصر تخويفهم اولادهم ساعة دون أُخرى بل قد يخوفونهم وهم يأكلون معهم . ومن ذلك ان لو خطفت القطة من امامهم شيئاً من الأكل وقت العشاء واحب الولد ان يضربها يمنعونهُ من ذلك ويفهمونهُ ان ضرب القطط ليلاً مضر بهِ لزعمهم ان روح القطط مفصول من روح الملائكة . واغرق من هذا في الوهم والخرافات انهُ ان وقع الطفل على الارض سمت عليهِ امهُ وسمت على اخيهِ معهُ مفهمة اياه ان لهُ اختاً من بنات الجان

ولهم خلاف ذلك خرافات كثيرة في ليالي المواسم فمن ذلك ما يتحدثون بهِ ليلة العشر من شهر محرم . من انهُ تهبط بغلة من السماء حاملة الجنيهات لصاحب النصيب فيأمر الاب ابنهُ والام بنتها بدعوى الله لتكون من نصيبهم فيحلم هؤلاء احلاماً يقصها بعضهم على بعض في اليوم التالي ولسان حالهم في الحقيقة يقول

اذا صدق الجد افترى العم للفتى مكارم لا تخفى وان كذب الخالُ

(١) حدث في شهر نوفمبر سنة ١٩٠٠ ان خرجت ابنة صغيرة من سكان (حارة الروم) لتشتري شيئاً مع ابنة أخرى فشاهدت اثناء سيرها رجلاً سقاء ذا شعر طويل مدلى فخافت منهُ البنت واسرعت بالعدو واختفت منهُ في منزل فاتفق انهُ دخل ذلك المنزل فلما رأتهُ هذه المسكينة انذعرت وارادت الاختفاء في مكان فسقطت في بئر المنزل وفارقت الحياة وذهبت ضحية خوفها الذي تربت عليهِ من الصغر بفضل اباتها

وهذه الخرافات تسبب للاولاد احياناً كثيرة الامراض العصبيَّة والتشنج اذ لا يخفى تأثير الوهم والخوف على النفوس الصغيرة . اذا عرفنا ذلك وتذكرنا يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٩ الذي تنبأ فيه بعضهم بانقضاء العالم لا نستغرب خوفهم ووهمهم الذي حدث وتقوّلهم الكذب في احياء الوطنيين . فقد روي عن كثيرين من الاقاصيص التي صورها لهم الوهم شيءٌ كثير من فطير نطق في الفرن وطفل ابن يومهِ ابتلع فرخة قبل طبخها وآخر اعلم والدتهُ بصحة النبإ وآخر (جادل القاضي مع والدتهِ بطلب النفقة من ابيهِ) الى غير ذلك مما يدل على استيلاء الخوف واوهم على النفوس بسبب التربية المنزليَّة التي ربوا عليها ووجدوا فيها ممتلئي الرؤوس بالوساوس والخرافات

هذا ونختم قولنا على خرافاتهم باعتقادهم حال خسوف القمر وتشاؤمهم من ذلك فانهم يأمرون اولادهم بالقرع على غطاء الحلل والصفايح[1] والشمس ايضاً هي على زعمهم يجرها الملائكة على عجل وهم مسخرون لهذا الامر وانها تغرق في البحر فيبتلعها الحوت

« اهمال نظافة ابنائهم »

الفقراء يتركون اولادهم في الحارات والازقة يتضاربون ويهملونهم للدعارة والعبث بكل ما تصل اليهِ ايديهم . انظر اليهم في الحواري والطرق تجدهم يتمرغون في التراب ويعفرون بهِ بعضهم البعض . حتى اذا اصيب احدهم برمد صعب الاستئصال تعلق الام على عين الابن خرزة حمراء يسمونها (البذلة) . واكثر

(١) يحكى ان فلكيًّا انبأ احد الامراء عن خسوف القمر في ساعة معينة فلم يعتقد نبأهُ واتهمهُ بالزندقة والمروق وتوعدهُ بالموت ان كذب خبرهُ وبجزيل العطاء ان صدق نبأهُ فلما خسف القمر . كان الامير نائمًا فاراد حيلة لايقاظهِ ليشهد لهُ بصحة نبإهِ فقال للناس ان الحوت يبتلع القمر فاضربوا الطبول وضجوا شديداً ليجفل و يعود عن الكوكب فلما بدأ صياحهم وعلت ضجتهم استيقظ الامير ورأى القمر مخسوفًا فكافأ الفلكي والله اعلم

الامراض في الاطفال مسبب عن قذارتهم حتى ان الطفل يصاب بامراض عدة وهو دون الحول من العمر وقد اثبت الاحصاء ان اكثر من تسعين في المئة من هؤلاء الاطفال يصابون بامراض العيون عن غير سبب سوى اهمال النظافة اهمالاً تاماً لجهل الام وخوفها عليهِ من شر العين فيقع في مرض العين

ومن يتأمل في معدل الوفيات في بلادنا المصريَّة يجد ان اكثر من تصيبهُ المنايا من الصغار فتذهب بهم قبل ان يدبوا بارجلهم على الارض . ومن قابل بين هذه الوفيات في بلادنا وبين جميع بلدان العالم وجد ان الموت لهُ الى اطفالنا طرق ومسالك قلَّ ان يجدها في بلاد الله الاخرى ومن بحث عن الاسباب ونقب عن العلل الناشئ منها موت الاطفال الذين ربما كان في القماط منهم من يحمي الرباط لوجد اسباب ذلك وعلتهُ جهل عامة الامهات بابسط القواعد والقوانين الصحيَّة في مساكنهم التي كثيراً ما يبتدئُ المرض منها وينتشر الى البيوت الاخرى حاملاً الموت على منكبيهِ . واذ دققنا النظر في عدم نظافة بيوتهم نراها على الاغلب من اهمالهم للنظافة وعدم اعتنائهم بمائهم وهوائهم والاَّ فلو كانوا مهتمين لانهزمت جيوش الامراض والاسقام من بينهم ولاعتدلت صحتهم وآمنوا شر الامراض والحميات التي تطحن اجسامهم واجسام ابنائهم وكفانا تعريفاً عن مساكن الفقراء انها اكواخ حقيرة من الطين قد تراكمت حولها الاقذار وتلبدت على ارضها وجدرانها الاوساخ وهامت الهوام عليها كأنها مزبلة من المزابل واولادهم لهذا السبب صفر الالوان كبار البطون اكتسوا من الوسخ وشاحاً[1] وكلما كثرت الوساخة

(١) ومن الغريب في اغنياء مصر انهم يجاورون هذه المساكن بقصورهم المشيدة وينظرون كل ساعة للفقراء وهم بهذه الحالة ولا تأخذهم رحمة بهم كأن هؤلاء ليسوا من لحم سكان القصور ودمهم . او بالحري كأن قد عدمت الانسانية منهم فهم لا يتأثرون . ولو علموا الواجب لبنوا للفقراء مساكن صغيرة صحية بدلاً من تشييد صروح فخيمة تسكن شهراً وتهجر دهراً

ساءت الصحة فساءت الاخلاق . واجسام الفقراء قلَّ ان يبللها الماء فتتراكم عليها الاوساخ ايضاً والادران[1] حيث يجد من وراء ذلك لهم الثقل في البدن والضعف في الادراك والفهم وزد على ذلك وسخ الثياب فانها ايضاً مجلبة للامراض والخمول والصداع اذ هي اعظم واسطة لانتقال المرض من واحد لآخر مثل الحمى القرمزيَّة فانها تنتقل الى العائلة بثياب المرضع وكذلك الجدري والتيفوس

نسأل الله ان يقرب الايام التي يشعر فيها الفقراء بلزوم التغلب على الفقر بالمعرفة حتى تسعد اوقاتهم . ويصبحوا ساعين في تهذيب انفسهم وتعليمها ما ينفع وما يضر ويعلمون (ان النظافة من الايمان)

تطييب الامهات الفقيرات

لاطفالهنَّ

الاولاد وهم في سن الطفوليَّة معرضون لجملة امراض تنتابهم من وقت لآخر . غير ان الاعتناء بهم يخفف ويلاتها عنهم اذا لم يكن يمنعها بالكليَّة . وهذا الاعتناء تختلف الطرق المؤدية اليهِ والوسائل التي تستعمل للوصول الى هذه الغاية باختلاف عوائد الامهات ومعارفها الاَّ انهُ بقدر عناية الام بولدها حسب ما توجبهُ حالتهُ بقدر ما تخف وطأة المرض عليهِ حتى يزول بتمامهِ . وعليهِ نرى ان اهل اليسار لا

(١) يظهر مما كتبهُ الفرنساويين في خططهم ان عدد الحمامات التي كانت موجودة لوقتهم تزيد على المئة والآن لا يوجد بالقاهرة سوى ٥٠ حماماً وهذا بالنسبة لما بلغتهُ المدينة من الاتساع وزياد السكان قليل جدًّا . وقد ذكر المسيحي في تاريخهِ ان العزيز بالله هو اول من بنى الحمامات في مصر . وقال الشريف اسعد نقلاً عن القاضي القضاعي انهُ كان في مصر الف ومائة وسبعون حماماً وكان اغلب هذه الحمامات موقوف على الفقراء . وباهمالها تخربت وتصرف فيها الملاك واستعوضت ببيانٍ أُخرى (خطط علي مبارك باشا) (جزء اول وجة ٩٥)

يعتري اولادهم المرض بقدر ما يعتري اهل الوسط واهل الوسط لا يكون المرض بين اولادهم منتشراً كما هو بين الفقراء . وعلى الانسان بقدر طاقتهِ ان يتحاشى كل سبب من شأنهِ احداث المرض وما ذلك بعسير اذ كل انسان ميالٌ بالطبع لدفع ما يؤذي ويؤلم . اما اخواننا الفقراء فانهم حقيقة يخافون المرض ولكن لا يعتقدون بطب ولا طبيب بل جل اعتمادهم في مداواة انفسهم مبني على علم معروف عندهم اسمهُ (علم الركة) وهذا كله مستوصفات منها النافع والضار . وفي كل مداواتهم للامراض يعتمدون على الوهم والظن لا على الحقيقة . مثلاً يوجد بين النساء الفقراء معتقد وهو اذا مرضت اطفالهنَّ وحكوا انوفهم فيزعمنَ ان في رؤوس اطفالهنَّ ديدان فيستعنَّ في اخراجها برجل عالم عندهنَّ يمرُّ في الحواري صارخاً بقولهِ (يا فرج) اذا احضرنهُ يرقي الاطفال على زعمهِ ويمرُّ براحتهِ على وجوههم فتتساقط الديدان من انوفهم واذانهم . والحقيقة ان ذلك خزعبلات يموه بها على عقولهنَّ لاخذ اموالهنَّ وقد تكون الديدان بين اصابعهِ او في كمهِ وقد ادخرها هناك ليلقيها وهو يمرُّ براحتهِ على جبهة الطفل

وكثيراً ما يصاب الاطفال (بالسعال الديكي) والشهقة فيصف النساء لبعضهنَّ ان يأخذنهُ الى جزار ابن جزار لكي يموه عليهِ بحر المدية على عنقهِ فيشفى اما الحقيقة فيعلمها العقلاء والاطباء[1] ولا يخفى ان الاطفال معرضون في صغرهم للحصبة والجدري والحمى التيفوسيَّة او القرمزيَّة فاذا كان شيءٌ من ذلك واعتمدنَ في شفاء اولادهنَّ على تجاربهنَّ ولم تنجح اشرنَ على بعضهنَّ البعض بان يزوروا

(١) ورد في مجلة (طبيب العائلة) جزء ٨ سنة ٥ ان الشهقة ويسميها العامة (الزغطة) فعل عضلي عصبي خارج عن سلطة الارادة مركزهُ الخيوط الصوتية للحنجرة وهي تاتي بدون علة ولا سبب وتضايق صاحبها كثيراً بل كلما اظهر تضايقهُ منها زاد فعلها

الاطفال ثلاثة اسابيع متتالية (الطاقة) التي في مقام اولاد عنان (رضي الله عنهم) وهناك اي في اولاد عنان (طاقة) صغيرة يدخلنَ فيها اولادهنَّ كل يوم (سبت) لا فرق بين رضيع وفطيم وبعد دفع الرسوم لشيخ المقام يقرأُ عليهم ما يأتي بصوت جهور

«يا بركة الطاقة وما فيها تشافيهِ وتعافيهِ وان كانت نفس تمنعوها وان كانت كفية تزيحوها وان كانت مشاهرة فكوها يا عنانية تشفعوا له بالشفا والعافية تحفظ بدنك (يا محمد) (مثلاً) قوم هات العافية في كمك واجري كلم امك»

وفي هذا المقام قبلة مهجورة ايضاً يقرأُون فيها على الاولاد ما يشبه هذا الكلام

وكذلك يوجد بئر[1] يقولون ان بها وليَّة تدعى ستي سكرة

يلقون فيها قطعة من السكر و يقرأُون مثل ما تقدم . و يداوم الطفل على الحضور ثلاثة سبوت وفي الثالث يلقون بملابسهِ القديمة في المبضة و يلبسونهُ أُخرى غيرها جديدة . ولا يخفى على العاقل فتك الحمى وعدواها والحصبة والجدري فان علماء الطب قرروا ان هذه الامراض مستعدة للعدوى من اقل سبب . ولربما ظن القارئُ ان الذين يذهبون من النساء باولادهنَّ عددهنَّ قليل . اما نحن فنقول ان اللواتي يذهبنَ الى ذلك من النساء كل يوم سبت من المسلمات والمسيحيات (الاقباط) لا يقل عددهنَّ عن المائتين او الثلاثة مئة يحضرنَ راكبات عربات النقل وراجلات على الاقدام من اطراف العاصمة افواجاً . وعندنا ان ذلك سبب مهم في جلب العدوى لاولادهنَّ من حيث لا يشعرنَ ولا الحكومة تشعر بذلك . فحبذا لو خصص الاوقاف من اموالهِ الكثيرة جزاءَ و بنى مستوصفاً لهؤلاء الاولاد في جانب هذا المقام الشريف حتى تطبب فيهِ الاطفال مجاناً والاَّ فتكون الحالة المتبعة الآن سبباً يدعو بالاطفال الى الموت عاجلاً والى العدوى وانتشار الامراض فيهم

(١) كان لاخواننا الاقباط الارثوذكس بئر مثلها في كنيسة العذبوية بالقبيلة فابطلتها جمعية التوفيق

وانتقالها من حي الى حي مما لا يرضي هؤلاء الاسياد . والله يعلم ان اولياء الله كانوا يعملون بالحديث الشريف (الناس عيال الله واحبهم اليهِ انفعهم لعيالهِ) ومن تأمل فيما قلناهُ يرَ ضرورة بناء المستوصف بجانب المقام رحمةً بعباد الله ورحم الله من سهل للفقراء راحتهم في ضيقهم وشدتهم

تعليم اولاد الفقراء

كم من صبي ولد فقيراً لا ذنب لهُ في قلة تربيتهِ وتعليمهِ الاَّ الفقر الذي نشأ فيهِ اذ كان قد وهب النباهة والادراك فقد اهملت فيهِ هذه المواهب . وان لم يكن وهبها فهو لم يستعض عنها بشيءٍ من العلم . ترى ذلك بلا مشقة في الامة المصريةِ الفقيرة حال مرورك في الشوارع بين ابناء امتك المهملين تربية وتعليماً ولقد انبأنا التاريخ ان كثيراً من الفقراء الذين لم يفتهم حظ العلم قد شبوا نافعين لأُمتهم ووطنهم وخدموا بلادهم الخدم الجليلة . كما ينبئنا البحث ان العقل يبدو كزهرة صغيرة فاما وسائط تنمو بها وتكبر ويضوع عبيرها . واما اهمال تضعف بهِ فتذبل وتسقط الى الحضيض . القِ نظرك نحو اولاد الاغنياء والفقراء وهم في المدارس فترى الاولين متأخرين غالباً والآخرين متقدمين يسابقونهم على احراز العلم والفهم ذلك لان الفقر الذي هم قائمون فيهِ يربي فيهم ملكة الاعتماد على النفس في المطالعة والدرس بخلاف اولئك الذين اكثر ما يعتمدون على الوسائط والجاه . والاولاد الفقراء عندنا ذوو استعداد احسن لقبول العلم لانهم لم يتعودوا عيشة الرفاهيَّة والدلال . وللدلال كما لا يخفى سلطان على اولاد الاغنياء واي سلطان . مثبط للهمم في نضارة العمر حائل بينها وبين ما يسمى التفات واكتساب من كل ما يمر بالشخص في المدرسة او البيت او السوق ومع علمنا الاكيد لتلك المزايا لاولاد الفقراء . فاننا لا نجد

لهم من المدارس ما يسد احتياجهم وغاية ما هنالك منها بعض مدارس للجمعيات الخيريَّة كالجمعيَّة الخيريَّة الاسلاميَّة [1] وجمعيَّة العروة الوثقى والمساعي المشكورة وبعض مدارس للاميركان والفرير وبعض المحسنين [2] من الذين هزتهم الاريحية لتعليم اولاد الفقراء مجانًا . وما عدا ذلك فلا يوجد ثمة مدارس للفقراء بل يوجد لهم كتاتيب واحدها المكتب او الكتاب . وهو عبارة عن قاعة ارضية حقيرة لا تصلح الاَّ لايواء البقر او الحيوانات الاخرى يجمع فيها العريف او الشيخ كل يوم صباحًا صبية اطفالاً من الحواري والعطف لتعليمهم على زعمهِ وعلى زعم الآباء للخلاص من جلبتهم ولعبهم في البيت طول نهارهم فيجلس التلامذة ومعلومهم في حالة سيئة ركامًا فوق بعضهم ولو كانوا يفوقون الستين عدًّا . على ارض رطبة قذرة لا منفذ لتجديد الهواء فيها . حتى ان الرائي قد يظنّ لاول وهلة انهم جماد رص في قاعة لحين الحاجة اليه لولا صراخهم الذي يبعد الظن و يقرب الى الذهن انهم مخلوقات فيهم دم الحياة وطيب الروح . واكثر الكتاتيب لجماعة المسلمين منا وما بقي من الطوائف فليس لهم الاَّ النزر القليل منها

واجرة تعليم هؤلاء الاطفال كل يوم رغيف من العيش وجزء من عشرة من القرش يأخذ نصفها او اكثر العريف او الشيخ وما بقي فطعام الطفل فطورًا وغذاء ساعة الظهر . اما الحقيقة عن اجرة تعليمهم فما يتحصل من تشييعهم الجنازات وفي هذه الكتاتيب يتعلم الطفل جزءًا من السور الصغيرة من القرآن صباحًا

(١) عدد مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية اربعة لا غير تلامذتها كانوا لغاية السنة الماضية ٣٥٣ منهم فقط ٣٠ دفعوا الاجرة والباقون مجانًا لولا فضل الجمعية لما حصلوا على ثمرة من العلم فاذا كان هذا ثمرة الاربعة مدارس فكم يكون لو عضدها ذوو اليسار باموالهم

(٢) كالمرحوم الخواجه رفله عبيد الذي اوقف على المدرسة العبيدية الفين وخمس مئة فدان وجعل فيها التعليم مجانًا

عن ظهر قلب والاوراد والادعية فيما بقي من النهار . وليس تعليمهم من العريف او الشيخ بل من بعضهم البعض الاَّ من خشي الشيخ سطوة اهلهِ وتعنيفهم . فان ذلك يتلقى تعليمهُ من العريف مباشرة او من ولد متقدماً عنهم قليلاً وما سوى ذلك فمهمل . والولد الذي يُوكل بتعليم جماعة لنباهتهِ قليلاً في زعم العريف لهُ السلطان المطلق على الاولاد كلها فيقضي طول نهارهِ يلطم هذا وينهر ذاك ويخز الآخر او يوغز قلب العريف عليهِ ليضربهُ في " الفلقة " (١) ولذا من صالح الاولاد مسالمتهُ حتى لا يضايقهم بل يلعب معهم طول نهارهم في عمل ما يسمونهُ الاطفال (فريرة او حبك خوص النخيل بما يسمونهُ (بيت النمل) او حبك دوبارة الحصر الجالسين عليها بايديهم وارجلهم وكثيراً ما يجلس جماعة منهم في ناحية من المكان ولا يكادون يقومون الاَّ وخيطان (الحصيرة) كلهُ معدوم فضلاً عن سرقتهم حاجتهم من بعضهم البعض ثم حصول الاتفاق بينهم على أكل لقمة كبيرة مرة واحدة يسمونها " لقمة الزقوم " كثيراً ما تضرُّ بهم

كل ذلك يجرونهُ والعريف متغافل عنهم متمني انقضاء اليوم . واذا اراد نهيهم عن اللعب واتباع القراءة فانهم يقرأون السور المحفوظة في اذهانهم عكساً لطرد . او يهزون اكتافهم بغية ايقانهِ انهم عاكفون على الحفظ الى ان يجيء العصر ويتولى معظم النهار فيجمعهم العريف لقراءة الحزب ويصرفهم غير آسف والخلاصة ان ما يسمونهُ الكتاتيب مفسدة للاولاد في صغرهم مفسدة لتربيتهم وصحتهم . لان في الكتاتيب لا يتغذون جسماً ولا روحا . وفي شربهم يشربون من داخل " بلاليص " من نحار في وسطها غابات البوص يمتصون الماء منها مصاً

(١) كثيراً ما يصاب الاولاد بعلل وعاهات يكون سببها ضرب الفقهاء والعرفاء ومن عهد قريب فقأ فقيهٌ عين ولد يتعلم عندهُ في مصر القديمة

وهي واسطة عظيمة ايضاً لنقل عدوى الامراض والعاهات بسرعة واخص ما هم معرضون لهُ من الامراض مرض القراع والبرص والقوبة والجرب وغير ذلك

غير ان لديوان الاوقاف ولنظارة المعارف العموميةً كتاتيب ارقى من هذه قليلاً جاء عنها في خطبة الشيخ محمد شريف التي خطبها في ديوان نظارة المعارف يوم ٥ دسمبر سنة ١٩٠١ ما ملخصهُ : ان لديوان الاوقاف كتاتيب تديرها نظارة المعارف عدد تلامذتها في هذا العام ٤٢٩٠ وكان في العام الماضي ٣٩٦٦ وزاد عدد البنات المتعلمات بها فصار ٧٦٣ بعد ان كان في العام الماضي ٦٤٣ واما عدد المعلمين الاكفاء فهو آخذ في الزيادة وقتاً فوقتاً فقد كان في سنة ١٨٩٨ م ١٩ وفي سنة ١٨٩٩ م ٤٥ وفي سنة ١٩٠٠ م ٦٤ ووصل هذا العام ٩٠ منهم عدد ٤ من النساء وكل واحد من العرفاء الذين نجحوا في الامتحان يقبض مرتباً شهرياً قدرهُ ٧٠ قرشاً واما الفقهاء فيقبض كلٌ منهم ١٤٠ قرشاً وهذا غير مرتبات التلامذة المعروفة "بالخميس" فانها كلها تقسم بين الفقهاء والعرفاء . وقد عينت النظارة بكل كتاب فراشاً يقوم بنظافتهِ وما يلزم لهُ وما زالت ميزانيةً هذه الكتاتيب ترقى حتى صارت في هذا العام ٥٥٧١ جنيهاً بعد ان كانت في سنة ١٨٩٧ م ٣٥٢ جنيهاً فقط . اما التعليم والنظافة ودواعي الانتظام في هذه الكتاتيب فقد ارتقت كثيراً عما كانت عليهِ . ولكن مما يؤسف عليهِ انهُ رغماً عن زيارة اطباء المدارس لهذه الكتاتيب فان صحة التلامذة لم تتقدم كثير هذا العام فقد اظهر الاحصاء الذي عملهُ حضرة حكيمباشي المعارف ان نسبة المصابين بالرمد الحبيبي هذا العام لا تزال ٨٠ في المئة كما كانت في العام الماضي والسبب الاكبر في وقوف التقدم عند هذا الحد هو رداءة اماكن الكتاتيب فان الكثير منها غير صحي بالمرة ولا يصلح لان يكون محلاً للتعليم وهذه هي اكبر عقبة الآن في تقدم الكتاتيب

التي صارت محط الآمال في تربية طبقة كبيرة من الامة . ولذا رأى ولاة الامور من رجال الاوقاف والمعارف انهُ ينبغي ان يبنوا كتاب جديد على نظام صحي حسن يكون مثالاً في البنيان والتعليم والنظام لما يبنى في المستقبل من الكتاتيب في الديار المصريَّة . وهذا الكتاب يشيد الآن بجوار قبة القدويَّة وسيتم بعد ايام وتدور فيهِ الدراسة . هذا ملخص قول حضرة الاستاذ عن حاضر الكتاتيب التابعة للاوقاف التي تديرها نظارة المعارف بالنيابة عنهُ

اما الكتاتيب الاخرى التي تكفلت بها المعارف وتمدها بالاعانات وتهتم بملاحظتها وتفتيشها فقد قال في خطبتهِ عنها حضرة الاستاذ انها تقدمت في هذه السنة تقدماً ظاهراً كما يعلم من الامور الآتية . اولاً عددها قد زاد في هذه السنة زيادة عظيمة حتى انهُ لم يكفِ لتفتيشها اقل من عشرة مفتشين اذ بلغ هذا العدد ٩٢٥ بعد ان كانت في سنة ١٩٠٠ م ٤٨٤ وسنة ١٨٩٩ م ٤٠٣ وسنة ١٨٩٨ م ٣٠١ التي هي مبدأ التفتيش وقد زاد ايضاً عدد الكتاتيب التي امكنتها لائقة للتعليم فصار الآن ٢٦٨ وكان سنة ١٩٠٠ م ٢٤١ وسنة ١٨٩٩ م ١٢٩ وسنة ١٨٩٨ م ٤٨ وكذلك زاد عدد الكتاتيب التي امتعتها كافية فبلغت في هذا العام ٢٢٠ وكانت سنة ١٩٠٠ م ٩٩ وسنة ١٨٩٩ م ٧٧ وسنة ١٨٩٨ م ٢٧ . ثانياً عدد المعلمين الاكفاء الذين يتولون التعليم فيها قد زاد في هذا العام عن الاعوام التي قبلهُ فبلغ الآن ١٣١ معلماً و٤ معلمات . وكان سنة ١٩٠٠ م ٦٢ وسنة ١٨٩٩ م ٥٥ وسنة ١٨٩٨ م ٤٠ . ثالثاً عدد التلامذة ولاسيما البنات قد زاد عما قبلهُ زيادة وافرة فبلغ ٢٤٦٩١ من البنين و ٢١٤٠ من البنات وكان سنة ١٩٠٠ م ١١٣١٨ من البنين و٩٩٧ من البنات وسنة ١٨٩٩ م ٩٨٣٩ من البنين و٥٦٨ من البنات وفي سنة ١٨٩٨ م ٦٩٣٦ من البنين و٥٩٨ من البنات . ومما يحسن ذكرهُ انهُ

فضلاً عن كثرة وفود البنات على الكتاتيب من سنة الى سنة قد أُنشئ لهنَّ كتاتيب خاصة بهنَّ ومن احسن ما أُنشئ لهذا الغرض المدرسة الخيريَّة بدمياط فانها أُسست على نظام بديع يمكن ان يعد من احسن مدارس البنات بمصر. رابعاً فضلاً عن تعليم القرآن الكريم في هذه الكتاتيب قد انتشر فيها تعليم مبادئ اللغة العربيَّة والخط والحساب هذا العام بكثرة زيادة عن الاعوام الماضية اذ بلغ عدد الكتاتيب التي تعلم فيها تلك المواد ٣١٢ وكان في سنة ١٩٠٠ م ٨٢ وسنة ١٨٩٩م ٥٨ وسنة ١٨٩٨ م٣٥ . خامساً التعليم الافرادي الذي كان مستعملاً في هذه الكتاتيب وهو تعليم فرد فرد من التلامذة نقص كثيراً جداً عن الاعوام السابقة وقام مقامهُ التعليم الجمعي وهو تعليم جمع من الاطفال بعضهم مع بعض وقد استعاض هذا التعليم الجمعي في الكتاتيب هذا العام حتى بلغ عدد الكتاتيب التي يستعمل فيها ٣٩٤ وكان سنة ١٩٠٠ م ١٥٤ وسنة ١٨٩٩ م ٧٧ وسنة ١٨٩٨ م ٣٤ . سادساً تحسن النظام في هذه الكتاتيب هذا العام زيادة عن الاعوام السالفة حتى بلغ عدد الكتاتيب التي يمكن اعتبارها منتظمة ١٠٥ وكان سنة ١٩٠٠ م٣٩ وسنة ١٨٩٩ م٣٧ وسنة ١٨٩٨ م١٧ وجميع اوجه التقدم المتقدمة نتيجة التفتيش وبالاخص منح المكافئات لاهل الكفاءة من معلمي تلك الكتاتيب فانهُ بعث كثيراً من رغبة الفقهاء في نيل الاعانة واستنهض هممهم الى تحسين احوالهم على قدر الاستطاعة واصلاح امكنة كتاتيبهم والقيام بما يلزم لها من الامتعة على قدر الامكان . ومن اجل ذلك زادت الاعانة التي قدرت هذا العام لتلك الكتاتيب فبلغت ٢١٣٨ جنيهاً مصرياً و٦٠ غرشاً صاغاً وكانت سنة ١٩٠٠م١٠٠٠ وسنة ١٨٩٩م ٧١٩ جنيهاً مصرياً و٩٠ غرشاً صاغاً وسنة ١٨٩٨ م٤٩٥ جنيهاً مصرياً و٢٥ غرشاً صاغاً وهذه المبالغ بلا شك لا تعد شيئاً

بالنسبة للنجاح العظيم الذي حصلت عليهِ كتاتيب الاعانة في هذه المدة القصيرة التي لا تتجاوز اربع سنين ومثل هذا النجاح يبشر بان مستقبلها سيكون احسن وانها ستخطو خطوات عظيمة في طريق التقدم والارتقاء . وقد تأكدت بهِ ثقة النظارة من نجاح مشروع الاعانة وانهُ كفيل بتعميم الاصلاح في جميع الكتاتيب الاهليَّة فزادت في مبلغ الاعانة للعام المقبل ونظمت للكتاتيب جميعها تفتيشاً عاماً متفرعاً الى تفتيشات محليَّة في القاهرة والوجه البحري والوجه القبلي واعدت لهُ المفتشين ورتبت لهُ ما يلزم من الامكنة والامتعة والعمال وعما قريب تخرجهُ الى حيز الفعل وتستمر في طريق الاصلاح الى ان تصل الى الغاية المقصودة المؤدية الى سعادة البلاد انتهى. باختصار قليل وفي ذلك بعض الاطمئنان على اولاد الفقراء الذين هم اولاد كل الامة

كتب الفقراء

كما للاغنياء والوسط كتبٌ يغذون بها عقولهم ويعلمون منها ما طرأ على العلم والادب من التقلبات . كذلك للفقراء كتبٌ بذيئة يتعلمون منها السفاهة ويعلمون منها ما طرأ على قلة الادب والرذيلة من الطوارئ . وهذه الكتب يؤلفها لهم السفهاء والحشاشون وهي مملوءة بصور هزليَّة قبيحة يقطر منها القبح وقلة الحياء . وهي المفسدة للاخلاق فيهم على فسادها المتضمنة للهذر والمجون مع كثرتهِ بين الفقراء . ويصدر منها كل يوم شيءٌ جديد كثير حشوهُ قلة الادب والسفاهة والبعد عن المبادئ القويمة . وهذه الكتب يغنينا التفكر قليلاً في اسمائها ككتاب "رجوع الشيخ الى صباه" (وكتاب منعظ العنين ومغني عن المعاجين) والايضاح في علم النكاح وقصة "الفلاح مع الثلاث نساء" (وعفريت الشوام)

"ونوادر جحى" [١] (والقاضي والحرامي) "وبدع بطه" (وراس الغول) "وخضرة الشريفة" (وبئر ذات العلم) و"علي الزيبق" (والمرأة اللي حبلت جوزها) "وقمر الزمان بن الملك شهرمان" (والعمدة اللي إجوز ستّه) "وبدع خرج من الحمام" (وتالي رمضان القبيحة) كل هذا يغني عن زيادة الشرح وهو لا يقع تحت حصر مما من شأنهِ افساد الاخلاق والآداب والدين. واغراء الناسك على التهتك في الفسق وتخدير العقول بمخدرات الجهل فوق ما هي عليهِ. ومن الغريب رواجها بسرعة عجيبة حتى انها تطبع مرارًا كثيرة في شهر واحد [٢]. ولكن لا غرابة ولا عجب ما دامت نفوس الفقراء متربية على حب التوغل في الرذيلة والقبح من الصغر

اذًا حقّ على العاقل المطالبة بابادة هذه الكتب لما تحويهِ من الغش والخداع خدمة للفضائل والآداب والانسانيّة. وحق للحكومة ان تعاقب اصحابها وطابعيها ولا يعز عليها ذلك ما دام اصحابها والذين يطبعونها يكتبون اسماءهم عليها. وهي لو اهتمت بالامر لوقفت على خفايا ما هنالك وعلمت انها محشوة بالاكاذيب في الدين والخداع في الآداب والاخلاق مما يُودع في رؤوس العوام رذيلة السفه ويولّد بينهم مكروب الفساد وليس أقدر من الحكومة على استئصال ذلك كما ليس احد مسئولاً اكثر منها عما يحفظ ادب الامة ومجدها وفخارها وفي القانون ما يساعدها على العقوبات [٣] والاّ فصعب والحكومة اصلاحيّة ان تتخلى عن الفقراء

(١) غاية ما يعلم عن جحى المغفل المشهور انهُ عاش في الكوفة في زمن خروج ابي مسلم الخراساني. ويروى انهُ كان لهُ نوادر كثيرة اغلبها في السفه

(٢) اذكر ان "بدع بطه" طبع في اقل من شهر واحد ستة مرات

(٣) جاء في المواد ١٥٦ و١٦١ من قانون العقوبات ما يأتي "كل من انتهك حرمة الآداب وحسن الاخلاق باشهار رسم او نقش او تصوير او رمز وتمثيل يعاقب بالحبس من شهر الى سنة ويدفع غرامة من مئة قرش ديواني وقرش الى الف قرش"

ونتركهم يقرأون لهذه الكتب حتى يصيبهم من الضرر والشر شيء كثير يؤثر على ارواحهم فضلاً عن تأثير الاعتقادات " بالعفريت والخيال والقرين "

المحبة والفقراء

المحبة صلة القلوب بين الناس ويجب ان تكون متينة العرى بين الفقراء ليتخلصوا من شر اهوائهم المتفرقة ومذاهبهم المختلفة . وليقربوا الى ما من شأنه تجنب الفساد وصرف الهمم الى الضار المشين . ولتقطع اعصاب الدسائس التي يدسونها لبعضهم البعض من غير موجب — والفقراء اولى الناس بالمحبة لتضم قلوبهم المتفرقة التي حجبها التغرير والتمويه بسبب فقدهم لها . حتى اصبحوا منبت البغض واشتهرت عنهم آفات الكذب والخيانة والخداع . ناهيك عن احتياجهم اليها لتحليهم بدلاً عما ذكر بالصدق والامانة والمحافظة على جلب الرحمة اليهم والشفقة . وحبذا هي لو عرفت بينهم لتكون سبباً يدعو الاقوياء الى الاعتراف بحقوقهم والنظر في رغائبهم فينالونها بدون بذل ماء الحياة والتذلل الذي يذهب بالشرف الآدمي . اما وقد صارت المحبة بين الفقراء سطحيةً تقع بينهم عفواً عن غير قصد . سعياً وراء منفعة ذاتيةً حتى اذا نالوها انقشعت تلك المحبة من قلوبهم وعادوا الى التنافر والتباغض . فلا لوم علينا لو قلنا انهم في كره متزايد وعدوان مستمر وكل يوم لهم في البغض اثر في حاراتهم واخطاطهم مع اهليهم وبني وطنهم وبني ملتهم ينشأون وينشأ معهم الشقاق والبغضاء منذ الصغر ويعيشون عاملين على البعد عنها في الكبر . الاَّ جماعات منهم قليلون وهؤلاء ممن رزقهم الله حلية العقل والادراك . وما عداهم فالكل عائشون بالتحاسد والبغضاء . حتى صارت قلة الادب فيهم خلقيةً

موروثة وضاعت من بينهم الشهامة والمروءة والامانة . وعلاهم البربري ببربرتهِ في المحبة لاهلهِ وبني جنسهِ مما لا يخفى على احد . اذ البربري يأتي من بلدهِ ولا يملك ما يسد بهِ الرمق ويستر بهِ العورة . فبالمحبة ينزل ضيفاً عند معارفهِ وبني نوعهِ وبالمحبة يفتشون لهُ على خدمة او حرفة يقتات منها لا فرق بين رجل منهم او صبي بل بالمحبة ينتقون لهما ما يصلح شأنهما وبها يجمعون لبني جنسهم من بعضهم البعض ما يشترون لهُ بهِ صندوق "البويه" لمسح الاحذية ويعلمونهُ على كيفية الحصول على معاشهِ وطرق الكسب اذ يرافقهُ احد ابناء جنسهِ في البلد ولا يبخل عليهِ بتعليمهِ كيفيةَ تنظيف الاحذية السوداء والصفراء . حتى اذا ترك حرفتهُ هذه لكبرهِ واستخدم بسبب مساعدتهم لهُ سفرجياً او خادماً يأتي باحد اخوانهِ ويعلمهُ ويدربهُ على حرفتهِ الاولى مع افهامهِ ان زيداً من الناس يدفع في مسح حذائهِ كذا وعمرواً كذا وهلمَّ جرًّا . واذ انتدبهُ احد لبيتهِ يدفع كذا . ثم يتركهُ داعياً لهُ بالتوفيق والنجاح المستمر . وبهذه الواسطة يتعلم منهم فضل الاتحاد حتى توصل كثير منهم الآن الى احتكار بعض القهاوي . غير تاركين لابن العرب واسطة او سبيلاً بينهم للتعيش وسببهُ علمهم بان اولاد العرب زملائهم يقبلون على مسح الاحذية برخيص الاثمان عنهم وفي ذلك مجلبة للخسارة عليهم لا يرضونها

هذا الامر مشاهد بينهم ومصدرهُ المحبة والاتحاد . يضاف الى ذلك العفة والحشمة والحياء والاعتبار بخلاف امثالهم من ابناء العرب الذين لا يستحون من القبح والفجور حتى انهم بعدوا عن طرق الخير ومسالكهِ بقدر ما زاغوا عن طرق المحبة والاتحاد والسير ضد الحشمة في جميع اطوارهم

اذا عرفنا هذا وتذكرنا حال الفقير في صغرهِ وهو الآخذ عن ابيهِ وامهِ الكثير من القذف والفحش في مجالسهِ بين اهلهِ وجيرانهِ وبين كبرائهِ واهل محارمهِ

لا يصدهُ وازع الحشمة لما اخذتهُ بهِ عوائد السوء في التظاهر قولاً وعملاً حتى اصبح خلق الشر موروثاً فيهِ أباً عن جدٍ وولداً عن أب لا نستغرب فقدان المحبة التي تمحو البغضاء من نفوسهم وتشد آواخي الاتحاد المتين بينهم . وانت تراهم حتى في صلاتهم بجانب بعضهم متخاصمين ولو في ختام الصلاة ينظر كلٌ منهم لاخيهِ قائلاً " السلام عليكم ورحمة الله "

لما على بصرهم وبصيرتهم من غشاوة البغضاء والشحناء بسبب فقدان المحبة من بينهم بل غاية ما يدركون الشتائم والسباب لاقل مناسبة حتى يتوصلون للمشاجرة واقتراف الجرائم بالاعتداء بالضرب والجرح . ونكاية بعضهم بعضاً بشهادة الزور وخدش الاعراض بسب الآباء والامهات . ويكفينا اننا نسمع كل يوم ازدياد مشاجرتهم وكثرة جرائمهم من مخالفات وجنح وجنايات رجالاً ونساءً وانهم يزيدون كل سنة عن غيرها في قتل الاب ابنهُ والابن اباهُ والاخ اخاهُ او اختهُ والاخت أختها او اخاها ولا جدال في ان سبب ذلك فقدان المحبة من بينهم حتى جلبوا على نفوسهم العطب في ليلهم ونهارهم

نسأل الله ان يزيل المكروه عنهم ويهبهم ادراك معنى قول المرشد الاعظم " صلى الله عليهِ وسلم " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخواناً المسلم اخو المسلم لا يظلمهُ ولا يخذلهُ ولا يكذبهُ ولا يحقرهُ التقوى ههنا واشار الى صدرهُ ثلاث مرات بحسب امرئٍ من الشر ان يحقر اخاهُ المسلمَ كل المسلم على المسلم حرامٌ دمهُ ومالهُ وعرضهُ

الجبن

" وضعف عزيمة النقراء "

الجبن الذي نحن في صددهِ هو قعود النفس عن الاقدام على الامور ولو كانت ممكنة لضعف متسلط عليها وانخذال في النفس عما فيهِ مصلحتها ومنفعتها وهو في الامة المصريَّة عام يتناول الرجال والنساء والاطفال. وهوذو سلطان قوي على العقول والاجسام . اذا تملك وتأصل فيها أفسد نظامها واضعف قوتها وفلَّ من حد عزيمتها . وقد سرى داؤهُ في اعصاب الامة وشرايين جسمها سريان السم في العروق الجسميَّة حتى تكاد لا تجد فرقًا بين طائفة وأُخرى في سيطرتهِ على رجال العلم والجهل فيها . والجبن في الامة المصريَّة وراثيًّا من قرون مضت وعصور خلت وسبب ذلك الضغط والاستبداد الذي أنتهُ الهيئة الحاكمة في تلك الازمان التي توالت عليها وكثرة تعاقب تلك الحكومات وشدة ما هي عليهِ من التنافر في السياسة والاحكام والقوانين . حتى لقد تنقض دولة كل ما صنعتهُ السالفة من الاحكام والشرائع تقصد بذلك تطلب الغاية التي تسعى اليها بكل قواها ومجهودها ويكفي لنا دليلاً على تغير الاحكام والضرر الناجم عنهُ ان اربع دول تولت امور القطر في المئة سنة الخالية هدمت كلٌّ منها ما وضعتهُ الاولى وابدلت ونسخت كثيرًا من الامور وابطلت بعضاً من العوائد المرعيَّة. اما الشعب المصري باختلاف عناصرهِ فهو ذو اقدام وحب للتقدم لو لم تصل ايادي الاقوياء من الاجانب اليهِ

انظر ماذا صنع ابرهيم باشا الفاتح من مدهشات الامور في فتوحاتهِ وكيف انهُ هدد كيان دولة لها بمصر روابط دينيَّة وجنسيَّة وهو لو لم تقيد يداهُ باغلال

القوة من تداخل الدول الاوربيَّة وحيلولتها دون كثير من مقاصدهِ لاتى بما لم تستطعهُ الابطال الاوائل والاقيال الاماثل . وهكذا فقد قيض الله ان يكون هذا القطر مطمح ابصار الطامعين ونهبة الناهبين ومحج آمال المستعمرين لكثرة خيراتهِ ودماثة اخلاق شعبهِ التي لشدتها تكاد تقرب احياناً من الذل والهوان

وليس بين الامم امة فعل بها الاستبداد فعلهُ الذريع مثل الامة المصريَّة . كما انهُ ليس بين الامم امة اقام فيها الذل والهوان مثلها وهو الذي اورثها الخمول فتأصل فيها مرض الجبن والوهن بامتصاص دمائها وهي رافلة في قيود الاستبداد . حتى اشتهرت بالقهر والغلب على امورها وعلم عنها انها الامة الميتة حياة أَلمندثرة وجوداً وليس من يعجب اذا قلنا انها من جراء ذلك قد بليت بشر التقليد الذي يتولد في نفس المغلوب في كل فكر وعمل وعزيز ورخيص واستحكم فيها داء الجبن الذي يتولد عنهُ كثيرٌ من الخرافات والامور السافلة . لاسيما وقد جهلت الامة باجمعها التربية الحقة وزاغت عن محجة الصواب في الازياء والعوائد الوطنية وبعدت عن الاحساس والغيرة بعداً شاسعاً وعن الثبات والاقدام في اقل الامور كما هو المنظور وافراد الامة ضعاف العقول كثيرو الاوهام حتى ليعتقدوا احياناً ان في اليأس رجاءً وفي الحبوط املاً وفي الذل مجداً وعزّاً كيف لا وهم لا يدرون الاَّ خزعبلات الكلام وتخرّصات الاوهام واضغاث الاحلام التي يحتلمونها في يقظة حياتهم التي هي اشبه بالسبات العميق لاعيادهم الرعب من لا شيء والتخوف من لا خوف والرهبة والانزعاج من لا قوة ولا صوت

فلا تستغرب اذاً فساد رأيها وحزمها وعدم ثقتها بنفسها . وبسبب الجبن ترقد ولو نهبت اموالها وتسخّر لاقل الاقوياء باقل اشارة . حتى اذا أكل اولئك

الاقوياء على ظهور افرادها وشربوا ورموا لهم بالفضلات القليلة اكتفوا بها غذاء نعوذ بالله من شر الجبن

نعم ان الجبن في الامة قد اختلفت حالهُ الآن كثيرًا بفضل حكومتنا الحاضرة ونظامها السديد فانحصر ذلك الداء الوبيل في فئة الاغنياء والفقراء دون الوسط وما سبب ذلك الأ ان هذا الوسط اكثر اقداماً على استطلاع الامور ومعرفة الحقائق ولما عركهُ بهِ الدهر وعلمهُ اياهُ الخبر دون الاغنياء والفقراء

اما الاغنياء فجبنهم مشاهد منظور في سيرهم وحياتهم كلها كما مر بك . والفقراء دلائل جبنهم ظاهرة في جهلهم وخوفهم وتحصيل معاشهم وكلامهم واخذهم وعطائهم وفي مقابلتهم بمن يكون أعلى منهم مرتبة . اذ يعتقدون ان طالب الحق فاجر وتارك حقهُ مطيع والمشتكي المتظلم مفسد والنبيه المدقق ملحد والحامل المسكين صالح . ومما يدلنا باجلى بيان على زيادة الجبن والوهن فيهم هو ذلك اليوم الذي صدرت فيهِ الاوامر بتجنيد رجال العسكريَّة من ابناء المدن التي كانت معفاة من تجنيد اولادها قبل صدور الاوامر المذكورة

فان المتأمل في ذلك الحين كان يرى ابناء الاغنياء كلهم يقدمون البدل العسكري عن سعة وانشراح مما اعطاهم لله من بسطة العيش والغنى . اما اولئك الفقراء الذين ليس بيدهم شيءٌ يشترون بهِ حياة اولادهم كما يزعمون فقد كان اهلوهم وذوو قرباهم يبكون وينتحبون في الغداة والعشي وكنت ترى الاب يفتدي ابنهُ بما يملكهُ من حطام الدنيا فيصبح صفر اليدين . والام تبيع قرطها او خلخالها (ولو كان خلخال زار) بابخس الثمن حتى تجمع مقدار فدية ابنها من العسكريَّة ومع هذا كلهِ لا يذهب الابن للكد والعمل ليعوض على ابويهِ ما فقداهُ بسببه بل يعمل على ما بهِ ضعف همتهِ وخمول وجدانهِ . والجبن داء الفقير كما هو ميسر الغني

وهو سبب من اهم الاسباب للانحطاط المشاهد في امتنا المصريةَ عموماً وفي الاسلاميةَ خصوصاً . بعد ما كانت ذات بطش شديد وساعد قوي . والاَّ فلو كانت الامة جميعها بعيدة عن الجبن مشهورة بمضاء العزيمة وشرف الهمة المؤدية لترقية الشعور وحب الوطن لتمكن من نفسها تربية نفوس اهليها لدرجة مصاف الرجال والرجوليةَ . بدلاً من ان يصبح الرجل كبيراً في السن ولكنهُ صغيرٌ في العمل يفوقهُ اقل رجل من الطوائف الاجنبية التي بين ظهرانينا

نسأل الله ان يهدينا طريق النشاط والجد ويبعدنا عما يجلب علينا الموت الادبي بطريق الجبن تحت كنف حكومتنا الحاضرة التي نبرامها منارٌ بالحق ومبدد ظلام الباطل ان الباطل كان زهوقاً

حرف الفقراء

ان فقد التربية وضعف الاعتناء بشأن الفقراء جعل حالتهم التي هم فيها كأنها لا تتأثر بمرور الزمن ولذا ترى فقير اليوم كفقير الامس هو هو يأكل خبزهُ بالكسل ويلبس لباسهُ بالخمول لا يعرف الشهامة والاقدام بل غاية ما يعرفهُ لتحصيل قوتهِ وملبسهِ صغار النفس وقعود الهمة عن السعي لعلمهِ ان ما تسوقهُ اليهِ العناية والقدرة هو رزقهُ لاغير ولا سبيل للاستزادة منهُ . نعم قد وُجد في فقير اليوم بعض من الشعور وعلم انهُ مجبور على تحصيل قوتهِ وملبسهِ بنفسهِ ولكنهُ مع ذلك لم يهتدِ لمعرفة الواجب ولم يعلم احتياج الامةاليهِ ليعمل بما فيهِ نفعها ونفعهُ ولم يهتمَّ بان يكون جسماً عاملاً بدلاً من ان يكون جسماً خاملاً وان عليهِ الاهتمام بمصالح الجمهور حتى يدرك ما قدر لهُ حقيقةً من الرزق بطريق الكد والكدح

كما امر الله الانسان بقولهِ " يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيهِ " حتى مَلا يستيقظ الفقير ويعتبر ويستفيد من تيقظ من يعاشرهم من نزلاء البلاد. بل هو باقٍ على حالتهِ التي كان عليها من سنين غير ناظر الى العمل نظرة العاشق لمرمى هواهُ والمريض الى الصحة بدلاً من شكوى سوء ايامهِ وشق زمانهِ وتركهِ جل اموره " للصدفة " مستعيباً ممارسة الاعمال لما نشأ عليه من حب الكسل وإيثار الراحة وفتور الهمة على العمل . والفقير لعمري لو كان على ضد ما ذكر وهدى نفسهُ الى العمل لكان اقرب لجلب الغبطة على نفسهِ في معيشتهِ . واقرب للفوز على من يعاشرهُ من الاجانب اذ لا يخفى ما هو متيسر للوطني من المساعدات والعنايات والاحوال بخلاف ذلك الاجنبي النازح عن بلدهِ المغترب عن اهلهِ واقاربهِ والمقيم بين قوم ليسوا بقومه

اما وقد اقام الفقير على كسلهِ المشاهد ودام على توانيهِ المنظور فلا حق لهُ في الشكوى من سوء حالهِ الحاضر ما دام هو الكسول في حركاته وسكناتهِ وليس اهلاً الاَّ لان يقصيه ذوو العمل وينبذونهُ عنهم وهو القليل المروَّة نحو نفسهِ القليل المنفعة لبلدهِ المستعيب وسخ اليدين النافر عن رزق عرق الجبين

وإنَّا نذكر للقارئ حرف الفقراء التي يحترفونها والتي يدعونها باشغالهم وفي مقدمة ذلك حرف البيع والشراء التي يقدمون عليها على امل الربح منها . واهم ذلك اصناف المأكولات القليلة الثمن والربح يزاحمون فيها بعضهم بعضاً رجالاً ونساءً حتى امسوا بسبب ذلك في اسوإ حالة فوضى فاقدي الصبر . يجرون على انفسهم ملل المعيشة فلذا قلّ من يداوم عليها . والاَّ فسرعان ما يتركونها الى ما يعبث بالامن . وخلوهم من الادب مع اضمحلال عقيدة الدين الآخذة بينهم بالتلاشي يلجأون الى السرقة في بيعهم وشرائهم او في غش ما يزينونهُ وما يكيلونهُ

ويكاد يكون بيع الرجال والنساء واحداً . فالرجال بيعهم في الامور الآتية . الكبريت والكتب . والاحذية . والحلوى . وعلائق الثياب . والفستق . والبطارخ والاثمار . والاقمشة . والجبنة والسميذ والجرائد . والفول السوداني . والزيوت والتمر الهندي . (وبيع الصفافير والاساور) وكل " حاجة بقرش صاغ " او بيع الفخار على ما يذكر القارئ

والنساء يبعنَ الازهار والاقمشة وماء الورد والاثمار واللبن والعسل "والمسلي" يطوف الكل رجالاً ونساءً حاملين ذلك طول نهارهم على امل الكسب منهُ

وهنا لا بأس من سؤال القارئ عما يربحهُ ولد اسرائيلي حامل بضع اوراق من ورق النصيب وهي خفيفة الحمل يربح منها بائعها اضعاف ما يربحهُ ذلك البائع الوطني الذي يضع على رأسهِ ما يبلغ احياناً كثيرة زهاء الخمسين رطلاً من البضاعة الدنيئة التي لا قيمة لها لا شك في ان حامل اوراق النصيب يعرف من اين يأتي الربح وذلك الوطني جاهل ذلك ولو كان احدهما ولداً والثاني رجلاً فقل لي بحقك ما مقدار ربح الولد وقت بلوغهِ اشدهُ اذا قسنا ما يربحهُ وهو في سن الحلم على ما يستنبطهُ من اساليب الكسب وطرق الربح اذا استعمل عقلهُ واعمل قريحتهُ واستفاد مما مرَّ عليهِ وهو صغير من الامور والطوارئ . وبينما يكون الفقير وزوجتهُ يكدحان وراء مبيع ما معهما من البضاعة الزهيدة القيمة يتركان اولادهما يطوفون الشوارع والطرقات بهيئة رثة كئيبة واينما مررت او اينما حللت ترى زمراً من اولئك الاولاد منتشرين بحالة يرثى لها وهم بثياب بالية يتراكضون ويتضاربون على كسرة من الخبز او فضلة طعام او عقب سجارة . جالسين على الارض كانهم ليس لهم آباء ولا أمهات تراهم يملأون الازقة صراخاً ويركضون صاخبين لاعنين لا يردعهم عن السب والقبائح رادع الادب والتربية لفقدانهما

منهم ولذلك تراهم من بنات واولاد كثيري الجرأة والحيلة في مداهمة المارة وسلب ما وصلت اليهِ ايديهم من امتعتهم يدفعهم الى ارتكاب مثل هذه الدنايا دافع الجوع والعرى وحب السلب وليس الذنب في ذلك كلهِ الاَّ على آبائهم وامهاتهم لاهمالهم تربيتهم فيشبون على حب ارتكاب المحرمات واتيان المنكرات من الامور فيكونون عالة على الامة وعبئاً ثقيلاً على كاهل الحكومة وهم لو تعلموا مبادئ التربية الحسنة لكانت لهم اعظم وازع عن هذه الامور . واغلب الاماكن التي يلجأ اليها هؤلاء الاولاد هي القهاوي والمطاعم وابواب المعابد ودور الاغنياء ونحوها واذا من الله على فئة منهم بعمل شيء من حرف المعاش اذا كبروا وهم ليسوا باهل لعمل مفيد يباشرون حرفة مساحي الجزم [1] اولاً واذا ساعدتهم الفرص الى حرف المكارين (الحمارة) [2] والحمالين " الشيالين " [3] او الحوذية [4] او يأخذون في حرفة التجوال في الحواري "جعيدية" وقوفاً امام الدور هذا ناقرًا على دفهِ ناشدًا لقصة " الغزالة والجمل " وذلك حاكيًا " قصة خضرة الشريفة " او قصة " صبر ايوب " او نادبين الزمن او ذاكرين ألم الفراق للاهل او متوجعين من ألم المرض وكثرة العال ولو كان اغلبهم اصحاء الاجسام اقوياء البنية يحتاج اليهم الوطن ليعمروهُ والعمل ليغدق عليهم نعمهُ بدلاً من كسرة يطلبونها بح الصوت او مليم يأخذونهُ بعرق القربة او باستنجاد اهل البيت والتشفع برجاء الاولياء والصالحين

(١) بلغ عدد مساحي الجزم بالقاهرة ١٢٦٢ سنة ١٩٠١

(٢) بلغ عدد المكارين (الحمارة) بالقاهرة ١٤٠٠ سنة ١٩٠١

(٣) بلغ عدد الحمالين (الشيالة) بالقاهرة ١٠٨٧ سنة ١٩٠١

(٤) بلغ عدد الحوذية (العربجية ركوب) بالقاهرة ٢٥٠٠ سنة ١٩٠١

اما عربجية النقل فقد بلغ عددهم في السنة المذكورة ٦٥٠٠ أخذنا ما ذكر من قلم — تنفيذ اللوائح — بمحافظة مصر

الذين لا يبيحون الصدقة على امثال هؤلاء [1] هذا هو العمل المشتغل فيهِ الرجال الفقراء والنساء الفقيرات غير ان للنساء الفقيرات حرفاً أُخرى كغسل الثياب وضرب الرمل ومعرفة الفال وقراءة القرآن في الطرق وغير ذلك من مثل بيع البرتقال او الادرة او البلح او الاستخدام في معامل الدخان وكل ذلك اسباب تتطرق بهنَّ الى الرذيلة من شيءٍ الى آخر ولنجتزئ الآن بذكر شيءٍ عن بائعات البرتقال وشيءٍ آخر عن استخدامهنَّ في معامل الدخان

اما بائعات البرتقال والبلح والادرة فنقول تبتدئ البنت منهنَّ في بيع الاشياء المحكي عنها وتكون في اول عهدها حريصة على ستر وجهها ان يظهر فتضع عليهِ النقاب خجلاً وحياءً ثم لا يمضي عليها قليل زمن حتى تتركهُ وتمشي في الارض مرحاً بغير نقاب ثم تبتدئ في تعليم النكت والهزار فلا يمر عليها عابر طريق من حوذي او حمَّار الاَّ وتناقشهُ النكتة . حتى رجال البوليس في دور يتهم اذكر اني كنت مرة في منتدى عمومي وكانت بالقرب مني امرأة من هؤلاء جالسة على الارض مفرطحة الارجل فجاء اليها البوليس ضاحكاً وابتدأ يخطر في الشارع بين ذهاب واياب وهي ترميهِ بنكة وهو يرميها بمثلها حتى آن وقت ايابهِ للمخفر فجاء اليها واخذ جزءاً مما تبيعهُ واوصى خلفهُ بها . وعلى هذا المسلك تجري بقيَّة البائعات من النساء الى ان يضبطنَ في محال الحنا والفجور

اما عن البنات اللواتي يستخدمنَ في معامل الدخان فهنَّ قسم كبيرٌ كانهنَّ يحضرنَ صباحاً و يذهبنَ مساءً وهؤلاء هنَّ شرُّ البنات سيرة وارذلهنَّ سريرة اذ

(١) من قول المتبولي رحمهُ الله — لا احب الفقير الاَّ ان كان لهُ حرفة تكفيهِ سؤال الناس — وكان رحمهُ الله يعمل في حياتهِ في الغيط و يدير الماء و ينظف القناة من الحشيش

يحكى ان منهنَّ عدداً كبيراً متزوجات بشبان الاروام زواجاً غير شرعي . هذا وكثيرات من البنات الفقيرات يراهن المارون في شوارع العاصمة وغيرها من المدن جالسات يقرأن سور القرآن الشريف على مشهد من الجميع ومسمع وأخص محالهنَّ جهات السيدة زينب والسيدة نفيسة وكبري المتبولي وابو العلا . ولا يخفى ان بعملهنَّ هذا حطة لنا وازدراء بنا لانهنَّ يقرأن القرآن الشريف بين القذارة والطين وبين ايديهنَّ اطفالهنَّ يصرخون ويئنون فتختلط القراءة بالبكاء . وكأنهم شاعرون بتحريم ذلك فيبكون ويبرأون والاَّ فما الداعي الى بكائهم وعهدنا بالطفل يحن للصوت ذي الرنة والنغم . هؤلاء اللواتي يقرأن القرآن في الطرق لو اعتنى بامرهنَّ جماعة من اهل الخير وعملوا لهنَّ مكتباً صغيراً وجيء اليهنَّ بمعلم يحرص عليهنَّ في حفظ القرآن وتلاوته مضبوطاً ثم يذهبن بين النساء في المآتم يقرأن لفتح لهنَّ باب رزق حلال ولا ثاب الله محضرهنَّ بدلاً من اولئك النادبات الملعونات

هذه هي حرف بعض الفقراء وقد تركنا حرفاً أخرى كثيرة يطول شرحها ولو كان ما ذكر مع ما لم يذكر لبساطته يفقد النفع المرجو من جماعة هم كل الامة والمجموع يعملون في ايقاف حياتهم على ما يوقف الثروة جبناً منهم لفرارهم من مواقف الكسب بالكد والكدح والاَّ فاين الثروة مع كثرة السكان ما دام اهل البلاد يشتغلون على ما ترى بالتافه القليل . وفي العطلة والخزعبلات والشعوذة الشيء الكثير حتى ان المتأمل اصبح يقرع سن الندم ويصفق صفقة الاواه على ما حاق بامته وما خسرته جماعته بفضل الجهل المرئي المنظور والله عاقبة الامور

الصناع الفقراء

انهُ مع قلة المعامل والورش الصناعيَّة في قطرنا العزيز بسبب عدم وجود المعادن في بلادنا المصريَّة وقعود الرجال وذوي الاموال عن تنشيط الصناعة فيها فان عددًا ليس بالقليل من الصناع الوطنيين الذين يصنعون للبلاد ما يلزم من بعض الحاجيات ولو كان اغلبها مجلوبًا من البلدان الاجنبيَّة موجود بين ظهرانينا لا ينتظرون لاظهار فائدتهم للبلاد الاَّ نهوض الاكفاء من الرجال لتعضيد الصناعة والامة في حاجة الى هؤلاء الصناع حاجة هؤلاء الفقراء الى افرادها من الاغنياء والكبراء . غير انك لو شئت ان تعرف حقيقة حالهم فهم ضعاف الميل والعزيمة في اداء العمل الذي يناط بهم . كثيرو الكفر بنعم مستخدميهم لاقل سبب ولو انها نصيحة من ولاة امورهم . اذ يعكسون الغرض من ذلك الى حقد عليهم وعدم رضى باعمالهم فيتولد لذلك في نفوسهم حب الانتقال من حرفة الى اخرى ولو لم يكونوا قد مارسوها من قبلُ

وعدم الاطمئنان هذا مجلبة لقلة نجاحهم في اعمالهم فضلاً عن انتفاء الثقة بين الصانع منهم وزميله اذهم كلهم مبغضون بعضهم بعضًا لما ظهر منهم من حب التعريض والنميمة والسعاية التي تكون عقباها وخيمة عليهم اجمع واذا علمنا ذلك شعرنا بانهم لا يذوقون لذة العمل ولا يحرصون عليه حتى يبلغوا فيه الاجادة وكل هذه اسباب تجلب الفشل عليهم والتأخر المستمر وتوجد فيهم حب الرضوخ لسلطان الصانع الاجنبي . فلا تستغرب بعد هذا لو قلنا ان الصانع الوطني يكون مستسلمًا للصانع الاجنبي مقبلاً على طاعته يتصرف بقوته وقوة زملائه كيفما شاء علمًا منهُ ان لهُ من قوة هذا التضافر فوزًا مبينًا وسبقًا اكيدًا في نجاح عمله

وبلوغهِ الغاية القصوى من اتقانهِ وحصولهِ على الشهرة الطيبة . وهذا الامر غريب من الصناع الوطنيين . وهم مع ذلك كلهِ بعضهم يدرونهُ ويعلمونهُ ويشاهدونهُ متأكدين من ان في اختلافهم هذا انحطاطاً وضعفاً ونذالة يجرونها اليهم عن غير قصد واختيار . ولا ريب في ان ذلك يستمر ويزداد ما دامت في قلوبهم الكراهة والميل الى الشقاق والنفور والفوضى وحقَّ للاجنبي ان ينتصر عليهم ويسود . واصدق شاهد على ما نقول الحالة الرديئة التي وصل اليها اصحاب الصنائع الوطنيين من حدادين وبرادين ونقاشين ونجارين تضمهم جامعة الصناعة والاخوة والوطنيَّة . ولنا على ذلك مثال في عنابر بولاق وورشها والورش الاخرى اذ ترى كل هؤلاء الصناع لا يحافظون على الوقت بينهم ولا يعرفون لهُ قيمة وكثيراً ما اقدموا على الشروع في عمل قبل ان يتموا الذي قبلهُ واخلوا بترتيب اعمالهم وهو من اشد الامور لزوماً للصانع عند تكاثر الاعمال

زر احدى المعامل المذكورة او ورشة من ورش الوطنيين واقترب منهم تراهم يتركون ما بايديهم ويقبلون على التكلم معك بكلام طويل غير شاعرين بقيمة الوقت الثمينة . نعم لا ننكر ان هممهم عالية وعزائمهم ماضية يتحملون مشاق الاعمال ويكابدون اشد الاهوال ولكن ذلك لا يكون منهم الاَّ دفعاً باليد خوفاً من سيطرة مسيطر عليهم

تأمل فيهم ترَ ان اخص صفات الصانع منهم الجرأة على الكذب والغش والاحتيال . او فوض اليهم عملاً تراهم كثيري الاخلال بالمواعيد كأن العامل منهم لا يحسن عملهُ الاَّ بالخداع والمواربة . تفرس فيهم جيداً تراهم ينظرون الى العرض في اعمالهم تاركين الجوهر . ظناً منهم انَ الغاية الحقيقيَّة هي في البهرجة

والطلاوة لا في احكام الصناعة ودقة الاحتراف وقد يعم فيهم هذا الحكم على كل اعمالهم

هذا وطريق الاقتصاد في مؤونة الاعمال الصناعية غير معروفة بينهم بل المعروف فيهم أخذ "المؤونة" ازيد من مطلوبهم وهم مشهورون بالخفة والطيش في العمل وعدم اتخاذ التروي ديدناً لهم واعمال الفكرة دليلاً في ما يعملون وما ذلك الا لفقدانهم فائدة الصبر والاعتماد على النفس ولذلك كان هذا الاهمال والقصور في احكام الصناعة ضاراً بهم مادياً وادبياً مضعفاً اجسامهم كما يتبين ذلك لمن عاملهم

دين الفقراء وتعصبهم

ان كل المصائب التي لحقت بالاسلام واهلهِ منذ ابتداء تقهقرهِ الى الآن لمصيبة صغرى تلقاء منشإ تلك المصائب وكبراها وهي جهل فقراء المسلمين بحكم اوامر ونواهي دينهم الحقيقية. وعندي ان سبب ذلك هو عدم وجود رابطة عامة في مركز الخلافة الكبرى لاكابر ائمة الاسلام تجمع كلمتهم على حقيقة المراد من تلك الاوامر والنواهي بالبحث والاجتهاد والتفسير بكل اخلاص. ونرسل فتنشر نور تلك الحقيقة في العالم الاسلامي ليهتدي بهِ ولتوحد افكارهُ فتكون وجهتهُ واحدة في كل احوالهِ الدنيوية والاخروية. اما وهذه الرابطة "التي هي امر جوهري" غير موجودة. ففي كل قطر من اقطار الاسلام بل في كل بلد بل في كل حارة من دعاة الضلال المدعين التفقه في العلم المشتغلين بالدين حرفة للتعيش الناصبين اشراك البدع والفتنة للاغواء على الرذيلة والانطواء لاحكام السفاهة المفسرين آيات الكتاب الكريم على ما تدعو اليهِ اغراضهم العالمية السافلة

الملفقين عن الرسول " صلى الله عليهِ وسلم " من الاحاديث ما تروج بهِ مصالحهم وتقضى حاجاتهم ما تنوء تحت حملهِ الانسانيَّة وترزح لثقلهِ الارضون . وتهتز لهُ السموات جزعاً و ينشق بهِ فؤاد الفضيلة فرقاً (١) هذا ما اضل عقول المسلمين وازاغ ابصارهم وفرق اهواءهم وغلبهم على ارادتهم وانتزع من قلوبهم الرحمة وقطع منها علائق الاتحاد والائتلاف حتى اصبحوا شذيتاً لا يرجى جمعهم اذا استصرختهم لا يجيبونك واذا هضمت حقوقهم واهنتهم استسلموا اليك صاغرين . يرون لجهالتهم ظلمات بعضها فوق بعض فيقولون نور على نور حتى اصبح المنصف العادل من المسلمين لا يرى وجهاً واحداً للحكم بان هؤلاء من المسلمين الاَّ اذا كفت شهادتهم باللسان. هؤلاءهم المسوغون لاخواننا المسيحيين ان ينعتونا بالتعصب وحبذا هذه الكلمة لو كانت فينا بمعناها الحقيقي . لان التعصب لا يخرج عن حد غيرة المرء على دينهِ ومحبتهُ لهُ والدفاع عنهُ اذا اقتضى الحال . وأتمنى في هذا المقام من الكلام لو كان الذين ينعتوننا بالتعصب من المسيحيين يفهمون ما يقولون . لاننا ما سمعنا ان احداً من عقلائهم قال بذلك وما سمعناهُ الاَّ ممن يتضرر العقلاء المتنورون من وجودهم مثلما تتضرر الفئة المتعلمة منا من جهلائنا الذين ذكرناهم

اما وقد يظهر للعارف جهل المسيحيين والمسلمين لحقائق دينهم ودخول البدع فيه وتمسكهم بها ووضعهم اياها موضع الدين الصحيح فلا تعصب عندنا معاشر المصريين بل هو جهل عم الكل يرمون بهِ بعضهم مزيناً بحلى الدين والدين بريء منهُ لانهُ من دعائم التوحش ومن دواعي الجفاء بين اهل الوطن الواحد لا توجد

(١) ويسدد هذه الضربات كساد اسواق العلم والعرفان بين عامة المسلمين بل في الشرق على العموم بحيث لا يمكن ان يدرك افراد العامة شيئاً من الحقيقة بنظرهم او ببحثهم

المحبة حيث يوجد وتتعالى الانسانيَّة عن ان تحتل ارضاً يمثلها الجهل وتأنف المصالح ان تحط رحالها في ابواب اصحابها

والاَّ فلو علم الناس عموماً والمسلمون خصوصاً قواعد شريعتهم السمحاء واركانها الحقة لما جهلوا ولا جرُّوا المصائب عليهم وعلى قومهم . كما لو عرف المسيحي الفرق بين لفظة تعصب ومغالات في الدين ما نعت اخوتهُ في الوطنيَّة بهذا النعت ولاتجاوز المقصود ورمى باوهام باطلة وافكار عاطلة . والاسلام ديانة تهذيب وآداب واخلاق مرضية . وهو الدين الذي يأمر اهلهُ بالمعروف وينهاهم عن المنكر واساسهُ مكارم الاخلاق[1] وهو سلامة وسلام لا مشاغبة ولا خصام. اذا عرفنا هذا وعرفنا جهل عامة المصريين فقد بطلت اقوال القائل بالتعصب ومحقت مفترياتهُ البعيدة عن الذمة والشرف . مادام ديننا يعلمنا ان من كان على نصرانيتهِ او على يهوديتهِ فانهُ لا يرد عنها وان للمسلمين دينهم والآخرين دينهم

والمطلع على التاريخ يعلم ان المسلمين والنصارى صلوا معاً في جامع الامويين بدمشق وجعل كل بينهُ وبين الآخر حاجزاً[2] مدة سبعين عاماً واطالما أُؤتمن المسلم أخاهُ المسيحي على مالهِ واهلهِ . وما وجدت الفتن ووقعت بواعث الجفاء بينهما الاَّ في الازمنة الاخيرة لجهل الجميع بمعرفة الدين ومقصدهِ اذ طالما عاش الفريقان بسلام ومحبة وإلفة ووداد . ونحن نناشد كل مسيحي يرمي المسلمين بالتعصب بذمتهِ وبقيتهِ ان يقول الحق ويعترف بهِ . هل توجد بلدان تكثر فيها جمعيات التبشير مثل بلادنا المصريَّة فيها حريَّة التبشير والمجامع الدينيَّة ولا يعترض

(١) قال الفيلسوف ارنست رينان " ان الاسلام هو اول ناشر للحضارة في ربوع اوربا وان الفضل في هذه المدنية الحاضرة لهذا الدين الذي من اصولهِ حرية الفكر والارادة"

(٢) راجع تاريخ دمشق للقساطلي

عليها معترض مثل ما يفعل اهالي البلدان الاخرى حتى نفس المسيحيَّة التي من مذهب مخالف لمذهب آخر هل يلحق بدعاة الدين المسيحي بالديار المصريَّة اذًى او اضطهاد وحيف مثل باقي بلدان العالم التي كل يوم نسمع عنهم اضطرار حكوماتهم ان تدافع عنهم بالقوة والسياسة . أليس المرسلون يفعلون في مصر وفي جميع الممالك الاسلاميَّة ما يثير النفوس ويجلب الظنون بنشراتهم وتعاليمهم فهل بعد ذلك التسامح والتغافل يرمى المسلم بالتعصب ونفس الطوائف المسيحيَّة هي التي تولد التعصب بعضها بين بعض ولاختلاف المذاهب تلعن الطائفة اختها وتحرمها وتحكم بضلالها وكفرها (١) يرمون المسلمون بالتعصب لسبب اسلام شخص واظهار معتقده بالاسلام لاغراض سافلة فتقوم الطوائف بسبب اسلامه ترمي الدين بما هو بريءٌ منهُ ويتمادون في سب المسلمين والمسلمات بما هم براءٌ منهُ ولو كان الذي اسلم حلاق دنيء او صبي صائم لا شرف عنده ولا علم . لا المسيحيَّة تبكي عليه ولا الاسلام في حاجة اليه . ألا يكفي حجة على خطاء امثال هؤلاء قولهم انهم اطلعوا على ما في الديانتين فرأوا انفسهم في خطاء فاتبعوا الصواب باسلامهم . ولو سلمنا جدلاً وقلنا بصحة مدعاهم وانهم اطلعوا على الدينين واتبعوا ما اتبعوا فهل ذلك صحيح ؟

والمسلم نفسهُ حاضرهُ كما تقدم لا شك ان امثال هؤلاء هم من السفلة الفاقدي الرشد لانهم تركوا الدين الذي ولدوا فيه وليس من دافع لهم الاَّ غرض في النفس . ويقولون اسلمنا حبًّا بالمسلمين . والدين لا يتبع حبًّا بالاشخاص بل حبًّا بحقيقة مبدإه وشرعه . فاين لامثال هؤلاء معرفة المبادئ والشرائع وهم المتبعون شرع أهوائهم بسوء التربية وسقم الادراك . والعاقل مسلمًا كان او مسيحيًّا لا يهمهُ شيءٌ من ذلك ما دام يعلم ان للاديان جميعًا ربًّا يحميها ان كان

(١) راجع ما تكتبهُ مجلاتهم الدينية بهذا الخصوص

حقيقة يرضاها والاَّ فلا دين محمد يعتز بنفرٍ او نفرين ولا تخور همة دين السيد المسيح من ذلك. فاذا كان هذا من امثال هؤُلاء الجاهلين يوغر دائماً الصدور بين الطوائف المتألفة منها الامة المصرية . فنحن ننشر داءنا منهم ومما يجرونهُ وينسبونهُ للدين لعلَّ الطوائف الاخرى تحذو حذونا وتشهر دائها وتطلب شفاءهُ من عقلائها والمآل كلهُ لله فيثيب برحمتهِ من يشاء ويعذب من يشاء وهو رب العالمين

حاضر اهل الطرق

والاذكار

قال الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر بن محمَّد السهروردي رحمهُ الله "ان الصوفي من يضع الاشياء في مواضعها ويدبر الاوقات والاحوال كلها بالعلم . يقيم الخلق مقامهم . ويقيم امر الحق مقامهُ . ويستر ما ينبغي ان يستر . ويظهر ما ينبغي ان يظهر . ويأتي بالامور من مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق واخلاص اه. وقال المرحوم علي مبارك باشا رحمهُ الله في خططهِ بعد ان ذكر ذلك " اقول فمن كانت هذه صفاتهُ يستحق ان يقتدى بهِ بقولهِ وفعلهِ ونحن جميعاً نودُّ ان تكون هذه الصفات لصوفية عصرنا المنغمرين في نعم خير بلادنا " اه . اما نحن فنقول حبذا لو ردوا الى اصل دينهم بقوة القائمين على حفظ الشريعة ليرجعوا الى نقاوة في دين وطهارة في معتقد. والاَّ فما حملة الرايات في هذا الزمن الاَّ قوم ملئت نفوسهم بالتلاعب في اصول دينهم لينظرهم الغير وهم في " سياراتهم " التي تدور في الطرقات وامامهم " الزي منير " وخلفها جماعة اهل الاذكار واهل الطرق وهم مشتغلون بالصياح والتصفيق فيعدون عملهم من

مباني الدين الاسلامي . والله يعلم انها اضاليل عامية ما انزل الله بها من سلطان وترى الاجانب يعدون موكب الرؤية والمحمل في مصر من اكبر الاحتفالات الدينية عندنا ويكتبون عنهُ في كتبهم وجرائدهم ما نخجل لو قرأناهُ

ويا ليتهم على ما تقدم متفقون بل اصبحوا وهم طوائف يضعون القوانين والمغالط ليجعلوها مصايد لاهل العقول المستضعفة ليعتريهم خلل الخروج عن حالتهم التي نشأوا عليها واليك بعض اعمالهم في حاضرهم نقصهُ عليك لتعلم نفاقهم وكذبهم على الله والناس

جماعة المتصوفة واهل الاذكار قوم خبثاء ولو كانوا بهاليل يغشون اطراف البلاد للتجر بالافتراء على الدين الكذب وكسب حطام الدنيا بذكر الله ممزوجاً بدق الدف وقرع الكاسات . بلي بهم الاسلام فاحدثوا فيهِ بدعة الجدال في العقائد وخالفوا الله ورسولهُ في النهي عن الخوض في القدر . يخدعون عامة المسلمين ببهرج القول وزور الكلام حتى كان من فضلهم تفرقهم شيعاً واحزاباً فمن كانت طريقتهُ رفاعية لا يميل ولا يصبو الى من عهدهُ بيومياً ومن كان عهدهُ احمدياً يخالف من كان برهامياً وكلٌّ لهُ اقوال يؤيد بها طريقهُ ويوهن بها طريق الآخر ولو كانت اوهاماً لا نسبة لها بين اصول الدين الصحيح والحق الواضح . كلها يا للاسف اعمال مجلبة للخزي والعار تصيب سهامها الدين والمعتقد لو رآها الغير ومن الغريب انهم يرضون بتمثيلها عند الغير لمبلغ من المال . فيمثلون اركان الدين على زعمهم في اشنع صورة واقبح مثال [1] لتملك الجهل منهم وفشوه بينهم وكثرة جماعة البهاليل والكل مدعٍ معرفة اسرار آلهية وهم في الحقيقة معتوهون ساقطو

(١) لا ينسى القارئ الذكر الذي كتب عنهُ المؤيد الاغر في منزل البارون او بنهايم فنصل المانيا بالاسمعيلية وكان حاضراً جماعة السياح نساء ورجالاً واهل الطرق يرقصون ويقولون لترجمانهم ان عملهم هذا من اس الدين وقواعده

التكاليف الشرعيَّة ودليل ذلك فيهم الرضى بالذهاب الى المعارض الاوربية [1] بغية عرض خزيهم ووقاحتهم التي جروها على دينهم وأُمتهم بفعالهم مثل رقصهم ودورانهم وانكسار الوسط منهم . واشكال ملابسهم التي يلبسونها مما لو رآها اي انسان لضحك واستغرق في الضحك من مرآهم اذ منهم من لهُ زنار وحزام ومن لهُ شعور كشعور النساء وبيدهم العصي المضببة بالنحاس او الحديد مما يشبهُ كل الشبه لجماعة اخوة تبع السيد المسيح عليهِ السلام [2] وهذه الاذكار اصبحت مفسدة للاخلاق

(١) ذكرت جريدة عثمانلي التركية ان بعض الادنياء من اهالي سوريا ومصر اتوا الى معرض باريس ودخلوا جنينة الحيوانات بهيئة دراويش يمثلون عوائد المسلمين وصلواتهم بطرق شنيعة مضحكة وكان الباريسيون يتقاطرون لمشاهدة تلك المساخر الجارة السخرية والهزء بدين الاسلام . فيا لله

(٢) كتب المسيو فيكتور شاربونيل مقالة في مجلة المجلات الانكليزية سنة ١٨٩٩ زعم فيها ان قانون اليسوعيين ونظام رهبنتهم منقولان عن بعض الطرق الاسلامية . ثم قابل بين نظامهم ونظام تلك الطرق وادعى ان انياس لوابولا مؤسس الرهبنة اليسوعية (ولادة هذا الراهب في عام ١٤٩١ ووفاتهُ عام ١٥٥٦م) اخذ عن تلك الطرق وانسج على منوالها وانهُ سجن اياماً في سجن التفتيش لعلة الاسلام اه

فاذا صح ذلك ولا نخالهُ الاَّ صحيحاً ظهر معنا ان محاسننا التي كانت فينا ولم تكن في امة اخرى قبلنا قد ضيعناها ونسيناها بفضل رجال الطرق عندنا وفقهائنا . نعم ذلك صحيح فان الملتفت الى طغمة جماعة اليسوعيين يرى بعض الشبه لما لا يخالف سير وسلوك اهل الطرق منا والاَّ فهذا البناء العظيم وذاك الاساس المتين الذي اتى بفضل سيرهم وسلوكهم على طريق تغبطهم فيهِ لا يبعد ان يكون بني على شبه ما بنى عليهِ اهل الطرق بنايتهم قبلُ وكتاب مجاني الادب المجموع من شتات الكتب الاسلامية دليل فان كان هؤلاء اخذوا ما كان لنا وجروا عليهِ ونجحوا هذا النجاح الوافر فلمَ لا نرجع الى ما كنا عليهِ . ولِمَ لا نبعد تلك الاضاليل والاكاذيب التافهة التي في مخيلة اهل الطرق والاذكار . ونبعد تلك الاقاصيص التي نقصها عن اوليائنا واهلينا ونتبع سير من سلف حتى ننجح بعض النجاح الذي نجحهُ من هم ناقلون عنا وآخذون منا

مجلبة للخزي والعار على أمة تأبى الضيم وتنفر من الاذى . والانكى مما تقدم بيانهُ ان الذين ينشدون عليهم الانشاد ينشدونهم من الادوار والمواويل الغرامية مثل "عزيز حبك" (وكان عقلك فين) وهم كل امرد جميل افرغ على نفسهِ الحلل المزركشة والثياب المعطرة

واغلب اذكارهم تكون في الموالد التي سيأتي الكلام عليها والتي فيها يستعمل الحيل والبطالة والدعابة والمزاح وتفقد العفة والزهد والطهارة حتى ينعكس قول ابو نصر السراج لضدهِ

ليس التصوف حيلةً وبطالةً وجهالةً ودعابةً بمزاحِ
بل عفةٌ وفتوةٌ ومروءةٌ وزهادةٌ وطهارةٌ بصلاحِ
وتيقنٌ وتصبرٌ وتوكلٌ وتذللٌ وتكرمٌ وسماحِ
فالى الصلاح غدوهُ ورواحهُ والى الرشاد مساؤهُ بصباحِ

ولاهل الطرق والاذكار اوهام كثيرة وخرافات عدة منها ما ينسبونهُ الى الاولياء من الكذب والنقص كقولهم ان السيد احمد البدوي "رحمهُ الله" امتنكف اخذ العهد من الشيخ الرفاعي وصعد الى السماء مؤملاً اخذ العهد من الرسول "صلى الله عليهِ وسلم" فسبقهُ الرفاعي ومد يدهُ اليهِ فتناولها البدويُّ واخذ العهد منها ثم قابلهُ الرفاعي عند نزولهِ وسألهُ ممن أخذ العهد فقال لهُ من الرسول "صلى الله عليهِ وسلم" فقال لهُ اتعرف اليد التي قبضت عليها قال نعم فمد يدهُ اليهِ قائلاً . أمثل هذه اليد فلما تأملها البدويُّ كظم غيظهُ

ومنها ان في الركن الخراب مقاماً للسيد احمد الرفاعي[1] وانهُ موكلٌ بالحيَّات

(١) الحقيقة ان مقام السيد احمد الرفاعي في ام عبيدة بالعراق في لواء عمار . رمم اخيراً على نفقة جلالة مولانا السلطان عبد الحميد ببلغ ٣٨٣٧١٧ قرش

والثعابين وسائر الهوام الى غير ذلك من الكذب والافتراء الذي يسوءنا ذكرهُ. هذا ومما يحسن نقلهُ عن جريدة "مصباح الشرق" الأغر على ذكر الثعابين ان المرحوم الشيخ البكري الكبير كان جالساً مع الشيخ الغلبان امين الفتوى والشيخ علي الدرويش شاعر ذلك العصر واسمعيل افندي الخربتاوي من الادباء فخرج عليهم ثعبان ففزعوا منهُ فقال لهم الشيخ كيف تفزعون من ثعبان وانتم في حضرتي وكان الخدم قد عاجلوا على الثعبان فقتلوهُ فقال لهُ لشيخ الدرويش "ان الثعبان لم يخشَ جدك في الغار وبقي أثر ذلك فيهِ وفي ذريتهِ" فتضحك الشيخ البكري وضحك الحاضرون. ومن اوهام مشايخهم انهم "التزموا" بعض البلاد وصار كل صاحب طريقة منهم لا يقول بقبول ذكر الله في البلد الذي هو فيهِ الاَّ اذا كان على طريقتهِ. اذكر مرة انهُ لما كنت في بوستة قليوب أُقيمت حلقة ذكر وذكرت جماعة بطريقة البيوميَّة فجاء شيخٌ كان جالساً عن بعد ونبه القوم لكي لا يذكروا الاَّ طريقة الرفاعيَّة فوقع الخلاف بينهم حتى كاد يصل الى ما لا تحمد عقباهُ لولا توسط نجل سعادة الشواربي باشا في المسئلة فانتهت بسلام. ويذكرون ويأتون في المساجد كل ما هو منهى عنهُ حتى باتت المساجد مثل حانات او ملاهي لعب ترتفع فيها الجلبة والصياح عدا اتيان النقائص التي لم تكن تعرف قبلاً وهم بما يأكلون من لب البطيخ والقرع وما يلقونهُ من قشور الترمس وجذور الكراث وفتات الخبز يصير بعضها كأنهُ مستودع للزبالة ونحن ذاكرون في عجالتنا هذه قول علماء المذاهب الاربعة نقلاً عن جريدة "الحياة" الغراء عدد ٢ سنة ٢ قالت

استفتى بعضهم في سنة ٦٦١ للهجرة علماء المذاهب الاربعة الاستفتاء الآتي "ما قول السادة الفقهاء ائمة الدين وفقهاء المسلمين وفقهم الله لطاعتهِ واعانهم على مرضاتهِ في جماعة من المسلمين وردوا الى بلد فقصدوا المسجد وشرعوا يصفقون

ويشطحون فهل يجوز فعل ذلك شرعاً افتونا مأجورين يرحمكم الله "

فقال الشافعي

السماع لهوٌ مكروهٌ يشبه الباطل من قال بهِ ترد شهادتهُ والله اعلم

وقال المالكية

يجب على الحاكم زجرهم وردعهم واخراجهم من المساجد حتى يتوبوا و يرجعوا والله اعلم

وقال الحنابلة

فاعل ذلك لا يصلي خلفهُ ولا تقبل شهادتهُ ولا يقبل حكمهُ ان كان حاكماً وان عقد للنكاح عقدًا فهو فاسد والله اعلم

وقال الحنفيَّة

لا يصلي على الحصر التي يرقص عليها حتى تغسل والله اعلم

ذلك حكم الشريعة الغراء في اهل الذكر وارباب الطرق منذ ست مئة سنة فما قولك الآن بعد مضي نيف وسبع مئة سنة أُخرى لا شك ان الحالة اسوأ من ذي قبل . ونذكر الابيات الآتية من قصيدة لابي بكر المقري التي قالها قديماً ولكنها تنطبق على من ذكرناهم ايضاً حديثاً وهي

برغم سنة خير العجم والعربِ ... اضحت مساجدنا للهو واللعب
ما كان صلى عليهِ الله يأمرنا ... بضرب دفٍّ ولا زمرٍ ولا قصب
بل سدَّ عن مزمر الراعي مسامعهُ ... صوناً لها ولنا من هذه اللعبِ

ومنها

فضحتمونا وصيرتم مساجدنا ... وهي المصونة كالحانات للعب
شوشتم الدين غيَّرتم محاسنهُ ... فعلتمُ فيهِ فعل النار في الحطب
صيرتم دينهُ هزوًا ومضحكةً ... لكل ذي ملة من قوم كل نبي
هيهات والله ما في دينهِ عوجٌ ... ولا بملتهِ نقدٌ لمحتسب
ولا دعانا الى شيءٍ نعاب بهِ ... ولا الى فعلةٍ تزري بذي حسب

ومنها

سألتكم بالذي لا تكفرون بهِ والطائفين ببيت الله ذي الحجب
هل استدار حوالي احمد خلق فيما مضى من ذوي الاسلام والصحب
وقام فيهم مغنيهم كمثلكم للضرب بالدف والتزمير بالقصب

تالله انهم لو رجعوا الى الحقيقة من دينهم لكان عملهم هذا السخري يتحول الى عزة وجنونهم المشاهد وهزلهم المرئي الى حكمة وعلم

الفقراء والموالد

قال المرحوم علي مبارك باشا في خططهِ ان الموالد التي تعمل في السنة في مدينة القاهرة وضواحيها ما يقرب من الثمانين مولداً موزعة على اشهر السنة هكذا

٧ في شهر شوال
٥ في شهر القعدة
١٠ " " ربيع اول
١ " " ربيع ثاني
١١ " " جماد اول
٧ " " جماد ثاني
١٠ " " رجب
٢٨ " " شعبان

منها موالد سلطانية كبيرة ومنها بسيطة قاصرة على احياء ليالٍ بسيطة ولقد بين رحمهُ الله اسماء اصحابها فمن اراد احاطة العلم بها فليراجع الجزء الاول وجه ٩٠ من الخطط المشار اليها

وبعض هذه الموالد يلزم زمنهُ وشهرهُ العربي الذي يعمل فيهِ ولا يتحول شتاءً وصيفاً فتارة يكون في الشتاء واخرى في الصيف هذا بخلاف ما يعمل منها

في بلاد الارياف مما لا يعلم عددهُ الاَّ الله. وفي الموالد تكثر الحركة ويكثر الاخذ والعطاء والسلام والكلام لما يأتيها من الخلق الكثير من كافة البلدان كمولد النبي "صلى الله عليهِ وسلم" ومولد سيدنا الامام الحسين "رضي الله عنهُ" والسيدات والامامين والعفيفي والشيخ يونس بمصر وكبار الاولياء كالرفاعي والبيومي وغيرهما وفي الارياف كمولد السيد احمد البدوي[1] وسيدي ابراهيم الدسوقي[2] فلذا يكثر فيها فعل الموبقات من سرقة وخطف وشرب المسكرات وتعاطي المخدرات اذ تجار المسكرات "السبيرتو" يجتهدون في عرض مسكراتهم ويحببون اليهم تعاطيها باية واسطة كانت حتى انهم يعلنون عنها في الجرائد السيارة[3] وبسبب الموالد يخترق العوام حدود الدين ويهددون حصونهُ بترهاتهم الكاذبة. يذكرون الله بألسنتهم ويسارقون النساء المارة النظرة بعد الاخرى وافواههم تقبل صغار الاحداث بينهم والمنشدون يجرئونهم على امرهم ويزيدونهم حماسة في ميلهم بنشيدهم (اذا امتنع بوس الخدود) (وكان عقلك فين). وبديهيٌ ان اكثر من ثمانين في المئة من زوار الموالد مسوقون اليها بقوة الاعتقاد في اصحابها ولذا من عاقهُ عائق يمنعهُ عن الزيارة يتشاءم جدًّا من قطع عادتهِ ويتوقع شرًّا. وهذا الاعتقاد القوي لو وجد لهُ من يستطيع ان يستخدمهُ في طرق الخير كل سنة لكانت الموالد كلها بركات على اهل القطر كافة

(١) ولد سيدي احمد البدوي في مدينة "فاس" بالمغرب سنة ٥٩٦ هجرية وقدم مصر من الحجاز سنة ٣٧ وادركتهُ الوفاة سنة ٦٧٥ بالغًا من العمر ١٩ سنة ولقد بلغ عدد زوار مولدهِ سنة ١٩٠١ زهاء الثمانمائة الف زائر

(٢) وبلغ زوار مولد سيدي ابرهيم الدسوقي في السنة المذكورة مائتين وخمسين الف زائرًا

(٣) واليك صورة اعلان منهم

ولكن من الاسف ان هذا الاعتقاد في نفوس العامة كلهُ خيالات باطلة واوهام ساقطة تجعلهم يرقبون الاولياء ويخشونهم اكثر مما يرقبون ويخشون الله

ومثل هذه الاوهام التي ترسخ في الاذهان الى هذا الحد تضر غالباً بالاخلاق وتبعدها عن أس المعتقد الصحيح . ونموذج الفضيلة والكمال الادبي

وهذه الموالد السلطانيَّة التي هي مجتمع لاصناف الناس على ازياء شتى ومقاصد متنوعة اكثرها مضرٌّ بالاخلاق والآداب بما لا يتصورهُ عقل عاقل . من خلط اوهام بحسن اعتقاد وفساد نيَّة مع سذاجة اخلاق وطباع

نسأل الله ان يبعث من يجدد للعامة دينهم ويثقف عقولهم ويحوّل بساطتهم ووساوسهم الى عقائد حسنة تصلح بها اخلاقهم وآدابهم ففي ذلك فوز عظيم لهم ونجاح باهر اذا تحقق امرهُ . والله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء . وهو على كل شيءٍ قدير

الاعياد والفقراء

ابهج الايام واجملها ايام الاعياد . اذ تكثر فيها اسباب الهناء والالفة . وتروج فيها سوق المحبة والعشرة . بعد اداء فرض اكرام الرب . وسنة توثيق عرى المودة بين ابناء الجنس . يخلد فيها المرء الى الراحة بعد التعب وتروَّح فيها النفوس بعد عناء الاشغال ولا غرو فالاعياد يلبس فيها الجديد وتزين فيها النفوس بثوب الزينة

(صورة الاعلان المشار اليهِ في الوجه السابق)

سيحتفل محلّ سبتية بار امام المحطة باحياء ليلة باهرة احتفالاً بمولد سيدي الاستاذ المدبولي وقد زين المحل بانواع الزينة وستقام الالعاب النارية من الساعة السابعة مساء الى الساعة الثانية عشرة وذلك مساء يوم الجمعة اي ليلة السبت . وقد احضرت مشروبات من احسن نوع وعلى كل ستكون هذه الليلة من الطف الليالي وابهجها . قسطندي نعوم

والاعياد عندنا معشر المصريين كثيرة جداً ولا يكاد يمر شهر من دون عيد عند طائفة من الطوائف المتكونة منها الامة المصرية . ولكن لتعدد المذاهب المسيحية لا يعلم ابن طائفة بعيد ابن طائفة أُخرى وكثيراً ما يعيّد احدهما الآخر فيسمع منهُ قولهُ ان العيد ليس بعيدهِ . وكأنهُ يلزمهُ عند مصاحبتهِ لصاحب ان يعلم مذهبهُ ايضاً حتى لا يقصر في معايدتهِ ابان عيدهِ ولهذا فالاعياد المسيحية تمر ولا يدري بها أغلب المسلمين حتى واغلب ابناء الطوائف المسيحية ولذا لا بهرجة للاعياد ولا تأثير لها مع كثرتها ولا تزاور ولا تواصل فيها وان علم شيءٌ من واجبات الاعياد فاعياد المسلمين في مقدمتها . يذكر الصديق صديقهُ الغائب عنهُ والاخ اخاهُ النازح عن بلادهِ . والمرء اهلهُ وذوي قرباهُ . فتتبادل رسائل الود والهناء حاملة ارق العواطف واحر الاشواق واخلص الادعية واذكى التحية . ولكن الزيارات الشخصية متعذرة عليهم جميعاً كأنَّ كل فرد منهم في بلدة او في مكان بعيد وليسوا عائشين في بلد واحد لاستبدالهم عوائدهم القديمة بعوائد وسنن الغربيين من ارسال رقاع الزيارة اشارة الى المعايدة تقليداً للافرنج في اعيادهم ولو كانت المعايدة على هذا النسق اقل شعوراً بالواجب في ايام ما اصفى مسراتها وابهج حفلاتها

هذا قولنا بالاجمال عن الاعياد بين الامة المصرية واغلب ما ذكر معمول بهِ بين الطبقتين العليا والوسطى . اما الفقراء المقصودون بالذات والذين هم تقريباً كل الامة . فلا يعرفون شيئاً عن الاعياد ولذا لا يعبأُون بها ولو كانت تمر عليهم تباعاً فاغلبهم ينتهزون فرصتها للانغماس في الملذات والشهوات واعطاء النفس مشتهاها من انواع المجون والانكباب على المسكرات والمخدرات ومحلات الفحش والبغي والعقلاء منهم يسكنون مدة ايام الاعياد في " القرافات " بين الاموات وقليل منهم من يعرف الواجب منها فيتبادل مع اهلهِ واقاربهِ وصحبهِ عبارات

المودة والاخاء مما يدعو الى توفير اسباب الالفة . غير ان الدلائل دلت في هذه السنوات الاخيرة على ان الامة بدأت تدخل في دور اليقظة وتعلم فضل الاعياد المليَّة كما بدأت تعرف فضل الاعياد الوطنيةً فتحييها وتسرُّ بها وتشترك العناصر المؤلفة منها الامة المصريَّة باحتفال عيد سمو مولانا الخديوي المعظم . مما يدل على ان الاعياد في مستقبل الايام ستظهر بمظهر الابهة والجلال وتأخذ معناها الصحيح المقصودة بهِ . وما احلاها اذا كانت الالفة موطدة والامن معززًا والرغد ناشرًا لواءهُ والسلام ضاربًا اطنابهُ والجميع عائشين في ظل الرحمة والعدالة مرتبطين بعرى المحبة . كما يعيش الآن المصريون في ظل خديويهم المحبوب اطال الله عمرهُ واعلى في الخافقين بنودهُ وعزز كلمتهُ

سهر الفقراء

كان الفقراء لا يعرفون السهر قبلاً الاَّ في بعض ليالي الافراح او المآتم وكان جل سهرهم قبلاً في بيوتهم او في بيوت جيرانهم بين نسائهم واولادهم يقضون ساعات السهر بسماع قراءة القرآن الشريف او بالافتكار في حل الحوازير او سماع الحكايات . والبحث في الحوازير هذه ملذ مفيد لانها مدعاة لاحتكاك الفكر فيهم ومجلبة لتولد النباهة بينهم والحوازير كالالغاز والاحاجي تكون في الأكل او اللبس وغير ذلك ولا ضرر منها عليهم اذا انتهت من غير كدر بل نفعها عظيم في صرف وقت السهرة في ضحك وسرور [1] . اما الآن فقد تعود الفقراء السهر

(١) منها سؤال — ان كنت حدق ولبق وتعرف الذوق تفسر الجلد من جوَّا واللحم من فوق — جواب — (قونصة الفرخة)

ومنها سؤال — شيء مسكته من ايديه بحلق لي عينيه — جواب — (برقع)

ومنها سؤال — شيء قد النملة يجيب الخيل ملجمة — جواب — " الكتابة "

في القهاوي البلدية وتركوا عادتهم هذه لسماع القصص من القصاصين او لسماع الرباب من الشعراء الكذابين الذين يقصون عليهم قصص زناتة [١] وسيرة بني هلال وقصة سيف بن ذي اليزن او السلطان حسن [٢] او "دون چوان" [٣] او لسماع الاغاني التي يسمونها "الصهباء" في قهاوي الحشيش ومحال المسكرات او الفرجة على الرقص في مجالس الخناء والفجور على افظع انواعه من الحركات المرذولة على جملة معانٍ . وهذه تزرع في نفوسهم التأثيرات السيئة وتوجد في اميالهم واخلاقهم شيئاً كثيراً من المضار والمعايب وبالاجمال ان سهر الفقراء مضر بهم جالب

(١) غاية ما يعرف من مطالعة التاريخ عن جماعة (زناتة) انهم كانوا قبيلة من اعظم قبائل افريقية لبلوغ كتيبتها سبعمائة وخمسين فارساً . التجأ اليهم الامير عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الاموي من ذبح السفاح فقابلوه بالترحاب ودخل مدينة اشبيلية وبقرطبة الرئيسان من طرف العباسية يتنازعان قيادة العسكر والسلطنة . فلا يبعد ان تكون قصة زناتة هذه وضعها القصاصون لان في زمن هذين الرئيسين وقعت حرب ظفر احدهما على الآخر وبايعهُ اهل اسبانيا سنة ٧٥٦ للميلاد ونتج من ذلك الوقت انفصال الخلافة المغربية عن الخلافة المشرقية ببغداد . كما يعلم ذلك المطلع على تاريخ الاسلام

(٢) لا يبعد ان يكون السلطان حسن هذا هو الذي تولى سلطنة غرناطة سنة ١٤٦٥ ميلادية وقد كان معروفاً بالشجاعة وحب الوطن ولو رماهُ اهل غرناطة في زمانهِ بالتكبر والقسوة وتغلب حب جارية نصرانية على عقلهِ واختيارهِ ولدها لان يكون خليفة دون ولده ابي عبد الله ابن السلطانة زوريا . ومن المأثور عن السلطان المذكور ان ملك مملكة نواره والوارث لمملكة اراغون اللذين كان لهما التصرف في الممالك الثلاث طلب من السلطان حسن الجزية الذي كان والدهُ يؤديها . فأبى قائلاً للسفراء اذهبوا فقولوا لاسيادكم ان غرناطة ليس لديها ذهب بل حديد لاعدائها ثم دهم مدينة زهرة واخذها سنة ١٤٨٠م وبعدها التهبت نيران الحرب الداخلية الى ما جاء في كتب التاريخ والسير والله اعلم

(٣) غاية ما يعرف عن "دون جوان" انهُ كان رجلاً فائداً نمساوياً حضر الى حصن جوليطة بعد واقعة لينته فاخذ تونس بلا ممانع ونأى عنها سنة ١٥٧٢ ميلادية ولعلهُ هو المذكور في القصص التي تقرأها العامة

الشقاء عليهم في معاشهم ومعادهم. اذ لا يخفى ما وراء السهر من فقدان القوة خصوصاً للفقراء الذين هم في حاجة اليها في صنائعهم وحرفهم . والذين لا يمكنهم النوم نهاراً بل ملزومين بالبكور على العمل وليس مثلهم كمثل الاغنياء الذين ينطبق عليهم قول القائل

ينامُ الفتى حتى اذا يومهُ استوى تنبه مثلوج الفؤاد مورما

الفقراء والمسكرات والمغيبات

لا يمنع الفقر والاعسار الفقير من تعاطي المسكرات بل الفقراء اكثر من الاغنياء في تعاطي الخمر ما دامت معامل الخمر كثيرة. والشيطان قد اضلَّ الفقراء بالمسكرات فقد استولى فيها عليهم الشر والمرض وهي معهم لا تذر شيئاً من الامل يرجوهُ لهم مشفق عليهم . فلا تعجب يا من هداك الله واجتنبت الخمر من اشقائك في الانسانيَّة وقد اوقعهم الشيطان في معاطب المسكرات والمغيبات يتعاطونها طوراً بحلاوة وطوراً بمرارة واوجد فيهم تخيل انبساط في الاولى ولذة في الثانية فاصبحوا لا يبالون بما ينشأُ عنهما من الاضرار ما داموا فيهما كليهما صريعي نشوات الغي يعطلون صفايا اعمارهم لامر الشيطان وهو وليهم يحثهم ويشوّقهم منهُ الى ذلك يأمرهم بترك الجد واتباع الهزل فيصدعون بالامر ويسيرون باقدامهم في طريق احزانهم اعوان الشيطان يرمون ببصرهم نحو حانات الخمر ومعاملها الكثيرة فيروا من الوسائل التي تسهل عليهم تعاطي الخمر بل تجرع السم شيئاً كثيراً في مخازن اعدت لهذا الغرض يسمونها "المعامل" داخلها (خبايا) براميل الالكول (الاسبرتو) والسائل فيها اما احمر "وهو الكونياك" واما اسود وهو (الروم) واما

بين ذلك وهو (الويسكي) يحلون مرارتهُ بشيء قليل من السكر و يعطرون رائحتهُ بشيء من الارواح الطيبة يملأون الزجاجات الكبيرة منهُ بالثمن القليل فيشربها السكير الفقير بقليل من الدراهم متوهماً انهُ يشرب خمرة طيبة مثل التي يشربها الاغنياء . فيحرق كبدهُ و يذبل نضارة شبابهِ ويفسد دمهُ ودم سلالتهِ ويسلب حياتهُ بتقصير عمرهِ واقلاق راحتهِ بالسقم والاوصاب وجهل الفقير بفائدة الحياة ولذة الصحة مهدٍ مع الشيطان لتلك المعامل مرشد اليها

ومن مروّجات باعة الخمر انتهاز الفرص لشهرة خمرتهم ومعاملهم . فما تمَّ حرب الدولة واليونان الاخير الاَّ وتم عمل كونياك (ادهم باشا) . كما انهُ ما تم حرب السودان الاَّ وتم عمل ويسكي (كتشنر باشا) . ووضعوهُ في القناني عليها صورة من ذكرنا . وهي نباهة وسياسة عقليَّة لجر المغنم الكثير من الفقير العسير . حتى لا يكون محور كلام الشاربين الاَّ على الحرب ومهارة القائد الذي يشربون خمرهُ . ولا يخفى اتساع باب السياسة سياسة حفظ الوقت عند الاوربيين وسياسة ضياع الوقت عند المصريين فمع الاخذ والعطاء في القول لا يقوم احدهم الاَّ وينطبق عليه قول القائل

وكل شيء رآهُ ظنهُ قدحاً وان رأى ظل شخص ظنهُ الساقي

في مثل هذا الطريق يتعاطى الفقراء المسكرات ولهم خلاف مشروب الخمر مشروب (البوظة) وهي كائنة ايضاً في محال حقيرة رطبة وكثيرة العدد تبلغ في مصر وحدها اثني عشرة بوظة اهمها ما كان في بولاق يشرب فيها الفقراء الى ما يوصلهم الى درجة السكر . اما المغيبات فمن اهمها الحشيش الذي لهُ قهاوي عديدة والحشيش هو عصارة نباتيَّة من نبات يسمى بالقنب الهندي وهو نوع من التيل تاريخهُ في المشرق قديم وقد ذكر المؤرخ الشهير المقريزي ان الذي اكتشف هذا

النبات شيخٌ من الفقراء اسمهُ (حيدر) اكتشفهُ اتفاقاً وأكل من اوراقهِ فحصل لهُ نشاط وسرور فاخبر اصحابهُ بهِ فاخذوا من اوراقهِ وأكلوا فحصل لهم من السرور والطرب ما حملهم على كتمان امرهِ وصيانة سرهِ عن باقي الفقراء . وقال لهم ان الله خصكم بهِ ليذهب همومكم الكثيفة ويجلو افكاركم وامرهم بزرعهِ حول ضريحهِ بعد وفاتهِ سنة ٦١٨ للهجرة . وكان قد اوصى اصحابهُ ان يوقفوا ظرفاء اهل خراسان وكبرائهم على هذا النبات فاعلموهم بسرهِ فاستعملوهُ وشاع امر الحشيش في بلاد خراسان وفارس ثم حمل الى العراق والشام ومصر . هذا غاية ما يعلم من امر تاريخ الحشيش . والحشيش محرَّمٌ شرعاً بلا نزاع . ولقد افتى الامام المزني تلميذ الامام الشافعي رحمهُ الله بحرمانهِ على مذهب الامام الشافعي (رضي الله عنهُ)

ومما يذكر من نوادر الحشيش ما جاء في كتاب خلاصة تاريخ العرب من ان رجلاً يسمى حسن الصباح سافر كثيراً وتبحر في العلوم وعرف فرق الدين المحمدي اخذ في القرن الحادي عشر من الميلاد يعظ الناس ويحثهم على اتباع مذهب جديد يغلب على الظن انهُ قريب من مذهب (الكرمانية) فتبعهُ خلق وجموع ملك بهم عدة قلاع وحصون واستوطن (حصن الموت) المشيد على هضبة قرب قزوين فلقب بشيخ الجبل واعلن العداوة للمسلمين والنصارى ورأى نفسهُ بمنزلة الاله الثاني الذي شغلهُ الاقتصاص من الظالمين للمظلومين ونفذت اوامرهُ فيمن معهُ . فكان اذا امر بقتل احد منهم بادر بالقاء نفسهِ من شاهق الجبل على أسنة الرماح او طعن بطنهُ بخنجر او امر بقتل احد من غيرهم بادروا بقتلهِ ولو وزيراً او سلطاناً او خليفة عباسياً . اخبر قومهُ ان شارب الحشيش يذوق جميع لذات الفردوس — فكانوا كالبهائم بسبب السكر بالحشيش مستعدين لارتكاب اكبر الجرائم — ولذا سماهم المؤرخون بالحشاشين لا بالحساسين اي

القتالين كما زعم الافرنج — وأذن لهم في النهب فنهبوا وجالوا باسلحتهم في الشام حتى بلغوا جبل لبنان وبنوا في الشام اماكن تحصنة ونهبوا جميع القوافل التي تمر بارضهم وقطعوا الطرق وملكوا في غرة القرن الثالث عشر من الميلاد كثيراً من المنازل في العراق والشام وحصوناً أُخرى قرب دمشق وحلب وتوطنوا من ابتداء سنة احدى وستين ومائة والف ميلاديَّة بالعراق الفارسي فبذل الملك شاه عزائمهُ في اعدامهم فلم يبالوا بذلك . بل يقال ان نظام الملك الذي كان الوزير الاعظم لهذا السلطان قتلهُ احدهم لشدة تعصبهِ وغيرتهِ على مذهبهِ الديني . وكان هؤلاء الحشاشون مع الفاطميَّة كحزب واحد لشدة مخاصماتهم وادمان مشاجرتهم مع اهل السنة [1] ونحن نذكر ذلك وهو غاية ما وصل اليهِ علمنا ومن شاء زيادة معرفة اصل الحشيش وتاريخهِ فليراجع ما كتبهُ المؤرخون الثقات يجد المجال فيها متسعاً والحشيش تأثيرهُ يقرب من الافيون بالنسبة لفعلهِ السام ويزيد عليهِ انهُ يحدث التسمم بالتدخين او الاستنشاق فاذا دخنهُ شخص في السجاير او في النرجيلة او وجد في محال تدخينهِ فاستنشقهُ حصلت لهُ اعراض التسمم بدرجات متفاوتة يعلمها الاطباء . كما يعلمها من شاهد الفقراء الحشاشين في مصر اذ هو المتصف بانهُ المجلب للنحافة بالتدريج واصفرار الوجه والجسم وارتخاء الاجفان واحتقان العينين حتى لا تحمل الضوء . كما انهُ يكثر السعال وتنتهي حال شاربهِ بالبله وضياع الاحساس والعمر . فلذا قلَّ جدًّا المعمرون من المدمنين على تدخينهِ . والحشيش بين الفقراء علة متأصلة فيهم تذهب بنضارة شبيبتهم وبنشاطهم ونفع البلاد المرجو منهم . فلذا هو آفتهم وعلتهم الكبرى التي دونها علة الخمر . واقدام الفقراء

(١) راجع وجه ١٣٨ من كتاب خلاصة تاريخ العرب للاستاذ (ستيد) المترجم بامر المرحوم علي مبارك باشا

على تعاطيهِ ناتجٌ عمَّا يجدونهُ فيهِ من الفرح والانشراح عند حلول الكدر والكآبة فتراهم يدلون بعضهم البعض بالاقدام على استعمالهِ في الزاجيل حتى يزول ما بهم من الاسف والأسى وجهلهم بحرمانهِ سبب ثانٍ لاقدامهم على تعاطيهِ اذ في امثالهم — ان الحشيش لايمنع ولاية — ولو كان مخالفًا لما بيناهُ فيما تقدم الاَّ ان الاقذاء والجهل العام بينهم المنتشر فيهم جعلهم عميًا عن معرفة حقيقة ما يضر وما ينفع · وتكاد تكون النفس ميالة فيهم الى تعاطيهِ بكميَّة تزيد كل يوم حتى يشتهروا على زعمهم بامكان حل المشكلات وايجاد سرعة الخاطر بالتكلم بالالفاظ وبالنكت المضحكة التي تضيع الزمن بحيث لا يشعرون · ولقد جرب مفعول الحشيش كثيرون من العلماء وكتبوا عنهُ وحكموا بضررهِ وانهُ سبب مهم لافساد نظام الصحة وتعب الجسم والعقل والامراض العاصية[1] زيادة عن الامراض التي تبتلي بها الفقراء والحكومة المصرية تمنع دخولهُ وتفرض العقاب الشديد على من يتجر بهِ او يسهل على الناس تعاطيهِ في القهاوي ولكن جماعة الحشاشين لهم

(١) تناول بعضهم مقدارًا كبيرًا من الحشيش بقصد التجربة العلمية ولما انقضى فعل الحشيش بهِ وثاب اليهِ عقلهُ وصف ما شعر بهِ في اثناء فعلهِ فقال

تمكنت الهواجس من نفسي ثم جعلت تحل قيودها وتنهال علي عقلي انهيال السيل وتتشكل في اشكال هندسية بالغة حد الاعجاز في احكامها والوانها وكانت هذه الاشكال تمر سراعًا امام بصيرتي حتى يتعذر عليَّ وصفها وصار رأسي اتونًا تنبعث النيران منهُ وتتفرع نجومًا لم أرَ في حياتي ما يشابهها في بهاء الوانها وشدة اشراقها وضاع مني حكم الزمان فلم ادرِ اني في دقيقة حدثت تلك الحوادث ام في مئة عام · واستولت عليَّ الكآبة كأن قدمي غارتا في الارض وغرقت فيها الى الخناق لثقل ما علق فيَّ برجليَّ من الاثقال ثم وجدتني صرت خفيفًا كالاسفنج فامسكت شجرة كانت بجانبي لكي لا اطير في الهواء ثم اخذ جسمي يرتعد كأن مجرى كهربائيًا جرى فيهِ وشعرت كان طوقًا من الحديد طوَّق راسي وضغطهُ حتى كاد يسحقهُ فاغمي عليَّ من شدة الالم · وحتى الساعة ترتعد فرائصي حينما أفكر بما كنت فيهِ من

منتهى البراعة في جلبهِ من الخارج ومنتهى التفنن في تعاطيهِ من غير ان يشعر بهم احدٌ[1] وهم يتعاطونهُ ضمن المعاجين والملبس وغيرها او قد يذهبون لتدخينهِ في الجهات الغير مأهولة بالسكان مثل جهات مدافن الاموات البعيدة عن نظر رجال الضبط . وترى شاربي الحشيش مع هبوط قوتهم وارتخاء مفاصلهم يهرعون الى محال شرب الحشيش . وانت لو كلفت احدهم بامر من ورائهِ نفع لهُ لا يقوى على عملهِ ويعتذر بضعفهِ . واكثر اقدام الفقراء لتعاطي هذه الاشياء المسممة لاجسامهم يكون في الايام الاول من ايام الزواج . فانهم يوصون بعضهم بعضاً بأخذ المقويات للجماع من مثل المعجون المسمى بدواء المسك والمعجون الهندي والرومي

العذاب . ولا يقاس رعبي حينئذٍ الاَّ برعب من رمي من حالق أو ربط بالسلاسل ووضع تحتهُ الحطب وأُضرمت فيهِ النار وحسبت ان الحالة التي كنت فيها لا تنقضي مدى الدهر فاستولى عليَّ القنوط ووددت ان اترك نفسي وأفرُّ منها لانجو من هذا العذاب . ثم شعرت كأني أخذت أطول بسرعة حتى علوت فوق الافق ونطح رأسي قبة السماء وانقطع فعل الحشيش فثاب الرجل الى نفسهِ وعاد الى بيتهِ . وبعد قليل خرج منهُ فعاودهُ فعل الحشيش وقال في ذلك . شعرت كأن جدران الكون انبسطت حولي وصدرت اصوات مطربة ازالت ما في نفسي من الغم والخوف وفتح امامي فردوس النعيم وخضت في بحر من البهجة والحبور جسداً وعقلاً ونفساً وطفح الحب والسرور على نفسي وبعد ساعات قليلة اخذت هذه المناظر تقل وضوحاً وشعرت بجوع شديد فدخلت فندقاً اكلت فيهِ كل ما قدم لي من الطعام وانا احسبهُ ألذ ما ذقتهُ في حياتي . ثم عدت الى مخدعي وانطرحت الى سريري فنمت الليل كله ونهضت في الصباح ولم يبقَ من تأثير الحشيش سوى اصفرار وجهي وتعب جسمي . الاسف على ما فات اه ا مقتطف جزء ٩ سنة ١٨)

(١) جاء في تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٠ م بلغ كل الحشيش الذي ضبطتهُ مصلحة خفر السواحل في القطر المصري ١٣٥٥٥ كيلو غراماً والذي ضبطهُ البوليس ١٥١٦ كيلو غراماً والذي ضبط في الجمارك ٥٠٤ كيلو غراماً والمجموع ١٥٦٢٥ كيلو غراماً فهو يزيد عما ضبط سنة ١٨٩٩ م ٦٤٧٧ كيلو غراماً ويزيد ٥ اطنان عما ضبط في اي سنة من السنين السابقة

والجراوش والمنازيل الاخرى التي منها الباهنج المستعمل في الهند والجانجاه التي تستعمل على هيئة سجاير في بلاد كلكته والشيرة التي هي مادة راتنجية مختلطة مع اوراق الحشيش وغير ذلك من الاصناف العديدة

هذا وكهول الفقراء يتعاطون الافيون المحتوي على المورفين الذي قد يحدث الهلاك لمناسبة انهُ من المواد السميَّة . وعلى ذكر الافيون يدعون من يتعاطونهُ منهم انهُ غير مضر بسبب انهم يتعاطونهُ من زمن مديد ولم يسمهم بسوءٍ . اللهمَّ الاَّ مايوجب الكيف وهم يحللونهُ ويحرمون الخمر ولعمر الحق ان الشيطان يزين لهم اعمالهم ويزيدهم طغياناً حتى يسوقهم الى اسبتالية المجاذيب ومن اوضح الادلة على ما يصيب الفقراء من كثرة الضرر لتعاطيهم المسكرات والمغيبات وما يجلب على نفوسهم من التعاسة والويل وضروب الخسف وجهد البلاء ما نذكرهُ من المخازي للعشاق الاحصائيين عن قوم يتعللون من فرائس الجهل الذي هم قائمون فيهِ رجالاً ونساءً على اسوإِ ما يتصورهُ الخيال من سوءِ الحال مما يستدعي بكاء الحجر الاصم نذكرهُ نقلاً عن تقرير اسبتالية المجاذيب الذي عملهُ جناب المستر ورنوك مدير الاسبتالية المذكورة في سنة ١٩٠٠ م قال

قد بلغ عدد الذين دخلوا الاسبتالية المذكورة من الذكور سنة ١٩٠٠ م ٤٥٤ وقد تبين ان ١٢٥ منهم جنوا من تعاطي الحشيش وان ٢٧٤ مريضاً خرجوا في السنة المحكيُّ عنها مع انهم لم يزالوا مرضى لايجاد محلات لمن هم في اصابات عظمى عنهم . وفي التقرير المذكور بيَّن جناب المدير عدد الموجودين في الاسبتالية من المجانين الغاية آخر سنة ٩٩ م وبيَّن اجناسهم واديانهم فقال بعد ان شكى كثيراً من ضيق المحلات

عدد المجانين واجناسهم واديانهم

الجنس	عدد	
مسلمون مصريون	٤١٣	المجموع
اتراك	١٤	
برابرة	١٧	
سودانيون	٣٥	
احباش	٣	
هنود	٠١	
مراكشيون	٠٣	
اقباط	٢٥	مسيحيون
احباش قبط	٢٥	
سوريون	١٩	
فرنسويون	٠٣	
طليانيون	٠٧	
مالطيون	٠١	
يونانيون	١٨	
انكليز	٠٢	
نمساويون	٠١	
سويسريون	٠١	
ارمن	٠١	
اسبانيول	٢	
يهود	١٩	

عددهم بالنسبة للحرف

وظائف	عدد
علماء	٩
كتبة	٠٣١
معلمون وتلامذة	٢٥
تجار	٢٠
عساكر بوليس وتراجمة وخفراء	١٥
نجارون وحدادون ونقاشون	٨٩
بناؤون وسقاؤون وحمامون	٢٢
خدم وسائقة ومكارون	٢٩
مغنون وشحاذون و باعة	٥٩
حرف مختلفة	١١٩

عددهم بالنسبة لاسباب الجنون

	المجموع	ذكور	اناث
حشيش	٢٠٥	١٨٧	١٨
الكحول	١٦	١٢	٠٤
داء الزهري	٢٧	١٩	٠٨
" السل	٠٢	٠٠٠	٠٢
" الصرع	٣٩	٢٩	١٠
قلة غذاء	١٣	٠٦	٠٧
حمّى تيفوئيدية	٠٣	٠٢	٠١
اغماء	٢٤	١٥	٠٩
نزيف دموي	٠٧	٠٧	٠٠
بالوراثة	٢٩	٢٤	٠٥
جنون دماغي	١٠	٠٧	٠٣
تقدم في السن	١٠	٠٣	٠٧
افراط في الجماع	٠٣	٠٣	٠٠
حزن وفقر وشقاء	٣٤	٣١	٠٣
اسباب غير معلومة	١٨٨	١٢٩	٥٩

ثم بيّن في جدول نمرة ١ ونمرة ٦ من التقرير المحكي عنهُ الجهات الوارد منها المجانين من محافظات ومديريات فمن المحافظات مصر وهي الاهم ثم تليها الاسكندريّة ومن المديريات مديرية الغربيَّة ثم تليها المنوفيَّة فالدقهليَّة فالشرقيَّة فجرجا

وبالجملة ان ضرر المسكرات والحشيش والمغيبات على الفقراء اشد نكالاً من الفقر بل هم بالحقيقة مرضى في عقولهم داءهم شهواتهم علتهم ضعف ارادتهم تتصرف قوتهم فيما يضر سفهاً وجهلاً فهل للانسانيَّة من نصير ينظر لهذا الامر الخطير بعين

الرأفة ويقوم بعمل نتيجتهُ انتشال هؤلاء الفقراء من وهدة البلاء والفقر وما تلك الوهدة الاَّ الجهل

اوهام الفقراء وخرافاتهم

قال حكيم اتركوا الجهالات فتحيوا وسيروا في طريق الفهم

الاوهام هي صورة المرئيات او المحسوسات او المسموعات يكبر حجمها او يصغر بقدر اشتغال الفكر لقبول الخرافات او رفضها . فهي اذاً صورة مأخوذة عن حقيقة بواسطة منظار عدستهُ تكبر الاجسام او تصغرها بعامل الميل الشخصي الى تعظيم الامور او تحقيرها فعليهِ لا تعتري الاوهام الاَّ ذوي العقول الضعيفة وقلما تعتري غيرهم الاَّ اذا كان عندهم ضعف في الدماغ او انحراف في الجهاز العصبي . فنستنتج مما تقدم ان الاوهام مرض عامٌّ منتشر مكروهٌ به في كل مكان الاَّ ان العاقل المتعلم يقوى عليهِ فيضعفهُ . والجاهل غير المتعلم لا يقوى عليهِ فيصبح مرتعاً لهُ فيسرح فيهِ ويمرح . واعظم شاهد على ذلك ما هو مرئيٌّ بين العامة لشدة استعدادهم لقبول تأثير الاوهام والخرافات عليهم . وما ذلك الاَّ لشدة انغماسهم في الجهالات . واكثر اوهام العامة في المسائل الدينيَّة وخرافاتهم في المسائل العموميَّة

اما الاوهام الدينيَّة فنقتصر على ذكر شيءٍ منها غير السابق ذكرهُ في الفصول السالفة اذ عندهم الاوهام معتقد آخر لا يمكن اماتتهم وزحزحتهم عنهُ . فمن ذلك الاعتقادات الوهميَّة فيهم في الحجب والاحراز الكثيرة التي يعتقدون فيها البركة والشفاء من الامراض (والارياح) والآلام والاسقام . ويعتقدون فيها النفع حال الدخول على الوزراء وارباب الاقلام . ويعتقدون فيها انها مجلبة المحبة والقبول . وانها تمنع عنهم كيد الاشرار في سرى الليل وسفر النهار . وتنفع من لدغة العقرب

والثعبان . وهي كثيرة منها "حرز الغاسلة" "وحرز الاسقام" "وحرز الانذرون" "ودعاء عكاشه" "والمخلفات" "وحرز الجوشن" "والسبع عهود السليمانية" وغير ذلك

هذا عدا عن ادعية كثيرة تتلى او تكتب في أوعية اما بماء الورد او الزعفران ثم يشربونها على امل الشفاء من اسقامهم واوجاعهم . ومن قبيل ادعيتهم هذه دعاء أولهُ "لخيثا وشمخيثا" الخ وهي وأيم الحق دعوات مجهولة لا تعرف لها حقيقة ولا اصل ولا معنى في اللغة العربية الاَّ عندهم فيزعمون انها من الاسماء العظام والادعية المستجابة . وهي لا تزيدهم الاَّ بعدًا من الله وقربًا من الشيطان وربما كان في اعتقادهم فيها ما يخرجهم عن دائرة الايمان الصحيح . ومن أدعيتهم التي يتلونها سبع مرات بعد صلاة الصبح الدعاء الذي اولهُ (يا كشهشطليوش كشهشطليوش) أقمني وأقم صورتي وذاتي ووجهي عندك وعند خلقك آمين يا ارحم الراحمين

وبخلاف الادعية لهم عزائم نقرأ كثيرًا بعضها يعزمون بها لوجع الضرس او لتسكين الصداع وآلام الرأس. وللصداع دواء آخر وهو ان الزعفران اذا حك بخل ولطخ بهِ الصدغان يسكن الألم ولباقي آلام الجسم عزائم . ولهم جملة كتابات لطرد النمل وباقي الحشرات منها انهُ لو كتب على جريدة خضراء او خوصة خضراء "اطلع الرب فنظر والعيوب فستر وللذنوب فغفر ارحل ايها النمل كما رحلت الرحمة عن شيوخ القرى الذين باعوا الجفن باللقم عنسج منسج نمرا" يهرب النمل ولا يوجد لهُ اثر . وجملة كتابات لمنع الحبل وما يكثر النسل منعنا عن الاتيان على وصفة منها قلة الأدب فيها . وللعامة خرافات واعتقادات جمة في نسبة الولاية لكل مشعوذ اومشعوذة او مهبول او مهبولة . فلذا كثر المجاذيب في هذه الايام من المدعين

الولاية وكثر ما نسمعهُ كل يوم عن اتيان البدع والمنكر التي تمس الدين وتشين الشرع الشريف لان ظهور هؤلاء بهذه المظاهر امر يدعو الى فساد العقيدة وافساد عقول الناشئة والعامة . هذا بخلاف ما في نفوس العامة من الاعتقادات حتى في الجنازات فانهم ان اسرع حاملوها في المسير ظنوا في الميت الولاية فيفرحون ويؤمنون بكرامته ويقلبون لهُ النعال ليبطئ في سيره

وكثيراً ما تتجاوز اوهامهم الخرافيَّة سنن العقل حتى انهم قد ينسبون الولاية الى الحيوانات والنباتات فالجمل لو رأوهُ يرغي ويزبد ينسبونهُ للولاية ويلتمسون منهُ البركة . وشاهدنا على ذلك جمل المحمل وأهم النباتات التي يعتقدون فيها الاشجار الضخمة والاجذاع النخرة فان هذه لو رأوها يقرأون لها الفاتحة ويقبلونها . مثال ذلك الشجرة التي (تدعى الشيخه خضره) في جامع الحنفي رحمهُ الله فان الزائر يجدهم يتبركون بها ويقبلونها فضلاً عن ترك اثرهم عليها معلقاً بمسمار . كما ان كل شجرة غليظة الساق تكون من مدة سبقت يطلقون عليها لقب "سيدي الاربعين" واغلب هذه الاشجار من شجر الجميز [1] وكثيراً ما يقومون بعمل الموالد لهذه الاشجار [2] وكما يعتقدون بالاشجار يعتقدون بالابواب الاثرية القديمة ويتبركون بها ويقرأون لها الفاتحة لو مروا عليها ولدينا شاهد "بوابة المتولي" فان عليها رجلاً درويشاً يأخذ النذور وهو معلق راية بجانبهِ وفانوساً في النهار حتى اذا مرَّ عليهِ السياح

(١) في خرافات المصريين القدماء انهُ كان في الصحراء شجرة جميز يسكنها ثلوث من معبوداتهم وتأوي اليهِ ارواح الناس بعد الموت . ولعل هذه الخرافة باقية بين العامة من خرافات المصريين القدماء حافظوا عليها وبقوا ينظرون الى شجرة الجميز نظراً يزجهُ الوقار الديني

احمد بك كمال مقتطف جزء ١٢ سنة ٢٤

(٢) في دائرة المرحوم جلال باشا شجرة جميز يعمل لها مولد في غرة مارس من كل سنة واحياناً يحضر مولدها انجال المرحوم جلال باشا

الاجانب يشاهدونهُ ويأخذون منهُ شاهداً على تأثير الاوهام الفاسدة في عقولنا والجهل المتسلط على افكار المسلمين في دينهم .

وفي جامع الامام الحسين "رضي الله عنهُ" عمود من الرخام يشكو الى الله من فساد اعتقاد الملتمسين لهُ المتبركين بهِ وهذا العمود يدعي العامة و بعض من الخاصة بان السيد البدويّ يحضر اليهِ في كل ليلة " حضرة "

وللعامة وهمٌ واعتقاد في بئر " غير البئر التي في جامع اولاد عنان " في صحن جامع السلطان الحنفي وانها موصلة الى بئر زمزم ويروون رواية كذبها ظاهر من أول مرة وهو ان رجلاً كان مرة في مكة المشرفة يشرب من بئر زمزم فسقطت فيها الطاسة التي كان يتناول الماء بها فلما حضر الى مصر وجدها في هذه البئر .

هذا بعض من اوهام العامة الدينية الذين هم كل الامة تقريباً ذكرناها ولا نرجو الاَّ الاجتهاد في صرف افكارهم عنها فقد كفاهم باقي حاضرهم الشاهد المعيب وقد ضجت الارض الى بارئها مما ينتهكون بهِ حرمات الله وبهِ يجحدون " ومايؤمن اكثرهم بالله الاَّ وهم مشركون"

اما خرافاتهم على العموم فشيءٌ لا يعد ولا يحصى . ومن أهمها اعتقادهم في العرافين بان في امكانهم قتل الانسان او قلب صورتهِ الأدميَّة الى اية صورة ارادوها بكتاباتهم السحرية وبتكليفهم ارهاط " الجن " عمل ما يريدون عملهُ لانهم في عرفهم مسخرون لقضاء اغراضهم وهم في استطاعتهم " ربط "الرجل عن امرأتهِ حتى ازالة اعضاء تناسلهِ . وتعويق المرأة عن الحبل وفك المشاهرة منها او اغاظة زوجها ان لم يكن طوع ارادتها او كان في عزمهِ التزوج عليها . وكل ذلك بما يسمونهُ "الشبشبة وحلب النجوم " [1] ومن خرافاتهم عدم غسل الملابس في يوم الاربعاء آخر الشهر

(١) انظر الكتاب الثاني من طب الركة وجة ٦

او تفصيل الملابس يوم الجمعة. ولهم في الاحلام تفاسير كثيرة يتخوفون منها او يفرحون . وللكابوس تأثير مخيف جداً على اذهانهم صغيرهم وكبيرهم وهم يعتقدون بانهُ روح شيطاني يفاجئُ النائم و يسومهُ اشد العذاب فيتقونهُ بالاحراز التي تقدم الكلام عليها . او بعمل الاحجبة من اولئك المتخذين الشعوذة والتدجيل حرفة لهم للتحصيل والاكتساب [1] . وعندهم خرافة ان في كل بيت ثعباناً يسمونهُ "عامر البيت" ولذا هم لا يؤذونهُ لو نظروهُ حتى لا يؤذيهم بل يحضرون لهُ احد "الحواة" لاخراجهِ [2] . ولهم اعتقادات جمة في الطير من حمام وغراب وغير ذلك من باقي الاشياء التي ضربنا صفحاً عنها خوف الاطالة المملة. هذا بعض من اوهام العامة وخرافاتهم على العموم التي يأخذونها من صور المرئيات او المحسوسات او المسموعات التي تكبر فيهم بقدر ميلهم الشخصي وعلى قدر عقولهم الضعيفة ذكرناها للقارئ مثالاً ليستعيذ من شرها و يسأل الله البعد عنها انهُ اكرم مسؤول

الزار والفقراء

لم يكتفِ الزمنُ بما حاقَ بالمصريين من المصائب والاخطار التي تنازعهم وينازعونها بل اخذ يجرّهم كل يوم الى هوة التأخر والاضمحلال مستعيناً بالنساء على قضاء لبانتهِ بابتداعهِ كل يوم بدعة جديدة تسقط بها الامة المصرية في اعين الامم الحية الشاعرة بواجباتها

(١) ان شئت ان تعلم حقيقتهُ وعوارضهُ وقول العلماء المحققين عنهُ راجع وجة ٢٢٨ من السنة الثامنة عشر من المقتطف الاغر

(٢) الحواة قوم يحملون الاجربة على اكتافهم وينادون في الشوارع والازقة بقولهم يارفاعي مدد غرضهم بذلك التعيش بمسك الثعابين ولهم مهارة وحيل في القبض عليها

فمن أهم هذه البدع بدعة الزار الذي هو عبارة عن جمعية نسائية تشترك الجارية والسيدة فيها ثم يأخذنَ بدق الطبول دقات مزعجة ويتبادلنَ فيهِ الرقص والتمايل والبكاء الهائل. والركوع والسجود وضرب الخدود وحل الشعور وقرع الصدور في وسط تتلى فيهِ الاكاذيب على الله ورجالهِ الصالحين. فكم من وليٍّ بعد حياتهِ وصلاحهِ أُتهم بالكفر والشيطنة ونسبت اليهِ كرامات لا يرضاها ومعجزات يأباها من قوم يدعون بان الشياطين يركبوهم متخذين هيئة ملك او سلطان او جواري وغلمان. مجرد حيل وترهات دونها حيل ابليس لقضاء شهوات رديئة لا يمكنهم نوالها الاَّ بهذا الكذب والافتراء حتى ان الزار اودى بالعائلات الى حضيض المسكنة والهوان. والزار مع انهُ عام بين المصريين كافة الاَّ انهُ يكاد يكون خاصاً بالمسلمين واسبابهُ الحقيقيَّة عدم التربية وتهذيب الاخلاق بفهم الدين كما مرَّ

والاَّ فضعف التربية وعدم تهذيب الاخلاق يزري بالمرء الى اكثر من ذلك وقلة فهم المعيشة الزوجيَّة من أهم مسببات الزار. والمتأمل يعلم ان اسباب الزار هو سيطرة الرجل على المرأة ومعاملتهُ لها بالقسوة والحدة والغضب فتعمد الزوجة الى الانتقام من زوجها بواسطة تعلقها بالزار وبأن عليها "ريحاً" من الجن لا تستريح منهُ الاَّ بزيارة الاولياء

ومكر النساء وحيلهن اكبر من ان يدركهُ الرجال وجهل الاهل بالتوفيق بين الزوجين يساعد الزوجة على توفير مبتغاها في هذا الطريق السافل

ولذا تاخذ من ادعت بالزار بالاستعانة باهليها في امرها حتى اذا اكتسبت مساعدتهم ضد زوجها فاما ان تجري مشتهاها من الزار في بيتها او في الاماكن المعدة لهُ. وكم من عائلة اتاها الزار وهي مطمئنة فخرَّب بناؤُها وجعلها في اسفل الدرجات والزار لهُ نساء مخصوصات تدعي واحدتهنَّ "بالكدية" ولهُ اعوان من النادبات.

ولهُ مطالب من عال ودون فتذهب فيهِ الاموال جزافاً واسرافاً. ولوكان في شيءٍ تافه من مثل دجاجة بيضاء ونعجة سوداء تاخذ دماؤُها في اناءٍ وتدلك بهِ المفاصل ولهُ رقّ يرقى به صاحب الزار حتى يجاوب "العفريت" على حقيقة حالتهِ ومقصدهِ وهؤلاءِ "العفاريت" لهم اسماءٌ كثيرة بعضها اسماءٌ تشبه الاسماءَ التركية او العربية وبعضها غير مفهوم لها معنى مطلقاً. واهم محلات الزار في مصر واغلب جهاته المساجد ومقامات الاولياء الذين لا يرضون بهذا العمل ويغضبون منهُ

وقد شاهدنا الزار في مساجد كثيرة ومقامات عديدة في اغلب ايام الجمع ساعة صلاة الجمعة وهو في "جامع البيدق" جهة العشماوي "والشيخ يونس" "وابو السعود". "والشيخ نجم الدين" "وسيدي عوف"

ولا يقتصر الحال فقط على ذلك فان لهُ نقطاً كثيرة ايضاً كجهات السبتية وسوق العصر ومقابر باب النصر كل هذه الجهات هي مأوى الزار وعشهُ الذي يبيض ويفرخ فيهِ يجتمع فيها الرجال والنساء مختلطين بدعوى الزار فيضربون على الدفوف ويدقون على كؤوس النحاس وينفخون في عيدان الغاب حتى انهُ من كثرة هذا الاختلاط لا يصعب على الرجل لو شاء ان يهوى الى اذن المرأة فيوحي اليها ما يوحي بلا حياءٍ من امام او شيخ مقام فان هذا لا يهمهُ شيئاً سوى اخذ الرسم وهو قرش

هذا والزار محظور عملهُ شرعاً بفتوى صدرت من مشيخة الجامع الازهر. ومحظور عملهُ قانوناً بامر من الحكومة فانها فرضت العقاب على من يقدم عليهِ. ولكنهُ يعمل في الاماكن المتقدم ذكرها الى الآن وليس هناك من يواخذ عنهُ من رجال الاوقاف ولا من يخبر عنهُ الحكومة من مشايخ الحواري لان الاولين لهم منهُ مغنم والاخرين يعود منهُ عليهم بربح وناهيك بحقيقة مشايخ الحواري فانهم من

الرجال المفقودي الذمة المتغافلين عن عملهم بالاستقامة وحقهم ذلك ما داموا مسخرين لقضاء اغراض لا ينالون عليها اجرة فيلتزمون اخذ الرشوة والتغافل عما قضتهُ الشريعة وقررهُ القانون

الفقراء المرضى

"يقول الله ان كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي" فالسعي بدرء ما يعتري اخواننا من المرض مأمور بهِ في ديننا عدا ما في سجية المرء العاقل من الحنان والشفقة على الفقراء المرضى دون ان يذكرهُ مذكر ليشعر بالالم فيدرأهُ بالوسائط الممكنة . وما الانسانية الاَّ شعور بمحبة تسكن القلب واللب وتندمج في فطرة الانسان نحو اخوانهِ وبني جلدتهِ . وما دامت هذه العاطفة عاطفة حنان شريفة وحمية سامية تأخذ بالمرء لمشاطرتهِ بني طينتهِ آلامهم ومصائبهم وتحدو بهِ الى السعي في مؤاساتهم . وما دام الواجب على العاقل ان يسدي من هم اقل منهُ ثروة وجاهاً صحة وعقلاً ويمنحهم ما يتأتى على يدهِ من الخير ويوفق بين نسبة سعادة حالهِ وسعادة احوالهم لعلمهِ ان المرء كثير باخيهِ قليل بغيرهِ . فليذكر الانسان حينما يرى فقيراً مريضاً انهُ احد اخوتهِ وان السعي في مؤاساتهِ ومداواتهِ واجب عليهِ وانهُ مثى اسدى اليهِ خيراً فقد اتصف بصفة العقلاء الذين يجرون على قول قائل مشهور

"كل رجل في الدنيا نسيب لغيرهِ غير غريب عنهُ لعلمهِ انهُ رجل"

وهؤلاء فقراء المصريين كافة والمسلمين خاصة محتاجون الى ما يدرأ عنهم المرض بواسطة انشاء المستشفيات والملاجئ ويقيهم ما هم معرضون لهُ بفضل جماعة

المتطببين الجهلاء الذين ان ارادوا ان يفيدوا اضروا "والمريض اجهل من المتطبب طبعاً "بواسطة الحبوب التي يعطونها وكثيراً ما يكون فيها الزئبق فتزيد المرض وتؤدي الى الموت

علم الله ان اهم حاجة لهم المستشفيات اولاً والتعليم ثانياً . وما التعليم ازاء المستشفيات بشيء يذكر لما في المستشفيات من شفاء الجسم وتقوية الابدان. والجسم بعد شفائهِ من امراضهِ يقبل العلم ويتلقى الصنائع ويستعد للحرف لانهُ يكون سالماً وفيهِ طاقة الادراك وقوة العزم وقد قيل ان العقل السليم في الجسم السليم وما اصح هذا القول

لا يرضى العقلاء بمرض الفقراء لانهم كل الامة وكيانها افلا يأسفون اذ يرونهم مرضى الاجسام متحملين كل انواع المرض بين برص ومجذومين وعرج ومشلولين ومقعدين وخرس وصم ومسلولين

أيظن المصريون ان مستشفيات الحكومة تكفي لمرضى الامة وتفي بحاجاتهم. واقل طائفة من نزلاء البلاد قد تعاونت وشادت لطائفتها المستشفيات والملاجئ او لا يأسفون اذ يرون فقراءهم يلقونهم في طريقهم او في نزهتهم ويحومون عليهم طالبين الدرهم وحقهم ان يطلبوا الدواء لو عقلوا. لان الناظر اليهم يقرأ على وجوههم علامات المرض في قلوبهم والرمد في عيونهم . ام يظن عقلاء المصريين ان الاطباء منهم يقبلون تطبيب الفقراء مجاناً بناءً على ما هو مكتوب على باب كل منهم "للفقراء مجاناً" تالله لا طبيب منهم يطبب فقيراً بغير اجرة ولا رأينا في حياتنا من واحد منهم فعل ذلك غير المرحوم الدكتور دري باشا الذي كان مستوصفهُ شبه مستشفى مجاني للفقراء المنهوكين بالامراض والعاهات وكان يجتمع فيهِ من

كل الطوائف ذكورًا واناثًا فلما توفاه الله انقطع عن الفقراء كل هذا الخير العميم

واصبحت مستشفيات الاجانب فيها ملاذ المرضى وعياذ ذوي الادواء ولولاها لعدم الفقراء حياتهم وساء مصيرهم. وكفانا تحدثًا بمبراتهم انهم يلتقطون اولاد الفقراء وقد نبذهم اهلوهم نبذ النواة فيربونهم ويعلمونهم حتى يبلغوا اشدهم ويقووا على تحصيل معايشهم. لقد كثر اللوم وتعدد المنددون وكل يوم نسمع الاجانب يعيروننا بكثرة مرضانا وقلة اهتمامنا بانشاء مستشفى لهم حتى اصبحت احوالنا تحزن العقلاء وتبكي المؤمنين

ولكي يكون القارئ على علم بحالة امتنا المصرية نأتي على ذكر بعض ما آثر الاجانب ليتبين له حالتهم الخيرية لقاء حالتنا التعيسة المحزنة فنقول

قامت النزالة الفرنساوية في العاصمة بعمل مستشفى خاص لها في العباسية صرفت عليهِ ما ينيف على المئة والستين الف فرنك وساعدت الحكومة الفرنساوية القائمين بامرهِ بمبلغ ٣٠ الف فرنك فهل لنا شيءٌ من ذلك نحن المصريين وعددنا زهاء التسعة ملايين والفرنساويون عندنا لا يبلغون الخمسة عشر الفًا افلانخجل وننتحب على سوء حالتنا وطول تقاعدنا وتقصيرنا

وفي عزم الايطاليين التشبه بالفرنسويين في بناء مستشفى لهم ايضًا وقدروا المبلغ اللازم لذلك بمئتي الف فرنك وقد تبرع لهذا العمل الخيري جلالة ملكهم بمبلغ ٥٠ الف فرنك والخواجات روفائيل وفيلكس سوارس بمبلغ ١٨٠٠ فرنك ومحل كوجيني بمبلغ ١٥٠٠ فرنك وتبرع باقي اغنياء الطليان بالمعدات والادوات اللازمة لذلك . هذا بخلاف ما تنفقهُ جمعيتهم في هذه العاصمة فانها تنفق كل

سنة على فقرائها زهاء ٨٠ الف فرنك وتشاركها في ذلك حكومتها بخمسة عشر الف فرنك سنوياً . وكفاهم فخراً انهم المؤسسون لمستشفى داء الكلب[1] فاين عملنا نحن التسعة ملايين من عملهم وهم اقل من الخمسة وعشرين الفاً . وفي عزم النمساويين بناء ملجإٍ لليتامى بالاسكندرية بدل الدار المستأجرة الآن لهذه الغاية فأين ايتامنا من أيتامهم

وفي الاسكندرية ملجأ رودلف العظيم تحت رئاسة المستر كرفر يطعم فيهِ الفقير المسكين وقد ظهر من تقريرهِ عام ١٩٠٠ ان ادارة هذا الملجإ آوت في العام المذكور ٥٣٨٣ نفساً او يزيدون. وفي قليوب ملجأ لليتامى ايضاً وهو تابعٌ للارسالية الهولاندية فيهِ على ما بلغنا نحو العشرة من اليتامى . ولليونان مستشفى بالاسكندرية وآخر من تبرع لهُ من اليونان المسيو جورج يوانيدس فانهُ تبرع بمبلغ خمس مئة جنيه عن روح قرينتهِ . ولما توفي المسيو اكيلوبولو التاجر اليوناني الشهير بمصر وقرئت وصيتهُ في دار القنصلية اليونانية بالاسكندرية وجد انهُ اوصى بمبلغ ٩٠٠٠ جنيه لانشاء مستشفى لبني جنسهِ في القاهرة

هذا ومن الملاجئ العظيمة في مصر ملجأ العجزة بشبرا والفجالة تقام لهُ سوق

(١) بلغ عدد الذين جاؤوا مستشفى الكلب في هذه العاصمة سنة ١٩٠٠ م ١٦٠ فصرف منهم ٢٠ اذ تبين بعد مجيئهم ان الكلاب التي عقرتهم غير كلبة وعولج الباقون فبلغوا ١٠٩ من الوطنيين (تامل) و ١٢ من اليونان و ٧ من الايطاليين و ٥ من الفرنساويين و ٣ من الانكليز و ٢ من الترك و ١ من الالمان و ١ من البلجيكيين وقد جاء اكثرهم من مديريتي الشرقية والقليوبية وجاء كثيرون من بلاد أُخرى وخصوصاً من سورية "بيروت" والبلدان القريبة . هذا وقد تيسر للمستشفى ان يحسن اثاثهُ ويتقن عددهُ وآلاتهُ في سنتهِ الثانية بالمال الذي تكرمت بهِ عليهِ الحكومة المصرية وقدرهُ ٢٥٠ جنيهاً والجمعية الخيرية الايطالية بهمة جناب مديرهِ الدكتور تونين المشهور في معالجة داء الكلب

كل سنة تدعى بسوق الشفقة وتباع فيهِ الادوات والهدايا النفيسة [1] وفي اصوان ملجأٌ لمبعوثي اخواننا المسيحيين من الكاثوليك بذلوا جهدهم في انشائهِ للايتام وفيهِ الآن ما يقرب من المئة وخمسة وعشرين طالباً و٦٠ طالبة. وللشركة الانكليزية التي نالت عمل الخزان ملجأٌ للمرضى تعالج فيهِ عمالها وفيهِ ما يقرب من العدد الاول من ابناء العبيد. وقد قررت اللجنة التي تألفت لاقامة اثر للمرحومة اللادي كرومر ان يفتح ملجأٌ للقُطَّاء في جهة القصر العيني وسيسع هذا الملجأُ نحو ستين لقيطاً والخلاصة انهُ لاينقضي شهر الاَّ ونسمع لهم مآثر حسنة تجعلنا نغبطهم ونتمنى لنا بعض مالهم من الملاجئ الخيرية

قال عمرو بن العاص "رضي الله عنهُ" "ان اهل مصر اعقل الناس صغاراً وارحمهم كباراً" فلم لا نجعل لهذه الشهادة بيننا اثراً ونسمع انين المرضى الفقراء ونخفف عنهم آلامهم في ضيقهم وشدتهم وخصوصاً التي ينالنا منها ضرر بالعدوى ولنا بمحوها واستئصال شأفتها حاجة ماسة

لقد سئمت النفوس من تكرار طلب الاعانات على الدوام ومن عهد قريب فتحت اكتتابات كثيرة حتى ان البعض كان يتبرع بثمن كتب ألفها و ما يجمع من ثمنها يقدمهُ اعانة. فلم لا ندع قول عمرو يتحقق فينا نحن المصريين فنشمر عن ساعد الجد ونقوم كل طائفة منا بعمل مستشفى لفقرائها خاص بها كما قال جناب اللورد كرومر في فندق "سافوى" حينما اجتمع بعض الانكليز والاميركان للمداولة في بناء مستشفى لنزلاء الامتين "ان المستشفى الاوربي في العباسية سوف

(١) بلغ ما جمع في هذه السوق سنة ١٩٠١ م ١٨٠٠٠ فرنك بخلاف ما جمع من احياء ليلة خيرية في الاوبرا الخديوية

يبطل لان كل امة صار لها موضع خاص لنزلائها في مصر" وحتى لا يقال انهُ لو ترك الافرنج اهل مصر لا يبقى لهم صحة ولا تجد فيهم عافية ولو كانوا كثيرين

مآتم الفقراء

قال علي "كرم الله وجههُ" ان الموت طالبٌ حثيث لا يفوتهُ المقيم ولا يعجزهُ المارب

ان ما يجري في مآتم الاغنياء يجري عند الفقراء مثلهُ او يزيد مما لا يرضى بهِ عاقلٌ ولا يجوزهُ شرعٌ ولا تأمرُ بهِ عدالة فان الفقراء يفوقون الاغنياء في احزانهم لكثرة ايامها وتعدد اوقاتها . ويكاد "يوم الخميس" عند الفقراء ينعت بيوم الاحزان . اذ تجول فيهِ النساء من حي الى حي نهاراً ويجاريهنَّ الرجال في ذلك ليلاً لحضور المآتم بعضهم عند بعض فترى النساء مبكرات بكور الزاجر للتعزية قاطعاتٍ المسافات المترامية مشياً على الاقدام اوركوباً على عربات النقل متزاحمات متسابقات لادراك هذه الغاية ومنطلقات من الجمالية الى بولاق او الى النصرية من الاحياء الوطنية ولا يرجعنَ الى منازلهنَّ حيث تركنَ اطفالهنَّ الاَّ عند العصر او بعدهُ . وليس لهذه العادة اثر عند نساء بقية الطوائف

اما حديثهنَّ وهنَّ ذاهبات الى المآتم فمقصورٌ على مدح النادبات وتشويق بعضهنَّ بعضاً الى ما سوف يسمعنهُ من ندبهنَّ الذي يثير الشجون ويحدر صيب الدمع من سماء العيون . ويتمادينَ في تفضيل احدى النوادب على الاخرى حتى يفضي بهنَّ الامر الى الخصام والمشاحنة وقد يأخذ من بعضهنَّ ذهول ينسينَ عندهُ انهنَّ ماشيات على قارعة الطريق فتزاح عنهنَّ الستور ويظهر ما في اعناقهنَّ من المناديل المطرزة بالسواد علاوة على ما في ايديهنَّ من المناديل التي يغطينَ بها

وجوههنَّ عند ذرف الدموع وقتما تلقي على مسامعهنَّ النوادب الادوار الشجيَّة الباعثة على النوح والانتحاب والداعية الى الحزن والاكتئاب ومن غريب امر المعددات انهنَّ يعرفنَ فقيد كل حاضرة في المأتم فيعدّدنَ اوصافهُ على حدة ويشغلنَ بذلك وقتاً طويلاً. ولا عجب فان هذا العلم الذي تحذقهُ النادبات فيهِ من متنوع اساليب التأبين والرثاء. ما تعجز عنهُ خواطر الادباء وقرائح الشعراء. فلذا لايصعب عليهنَّ ان يقلنَ ما يؤثر في نفوس السامعات ما دمنَ قادراتٍ ان يبكين الحاضرات على الشيخ الهرم كما على الفتى اليافع ولكن من العجيب انهنَّ يبكين من حولهنَّ وهنَّ خاليات من الشجو فلا تسمع لهنَّ زفرة ولا ترى في عيونهنَّ دمعة. والنساء الفقيرات يفقنَ الغنيات في الحزن اذ ليس لهنَّ رادع من اهل ولا من جيرة يعلمون ضرر ذلك بهنَّ صحياً فيسرفنَ في لطم خدودهنَّ والضرب بارجلهنَّ امام رجالهنَّ على المقابر ولو فوق الموتى الذين يبكينهم تحت التراب. والفقراء يتكبدون مع شدة فاقتهم نفقات طائلة في مآتمهم قياماً بما يجيون من الليالي وما يعدون من المآكل مدة الاربعين يوماً ولهم في التعزية أُمور مغايرة للسنة فيعزون الاب الذي فجع بابنتهِ بما يقرب من التهنئة بوفاتها كقولهم "ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات" ومن يتأمل يرَ ان هذه التهنئة في صورة التعزية كانت معروفة في الجاهليَّة الاولى عند ما كانوا يئدون البنات اي يدفنونهن حيَّاتٍ. والغريب ان المشايخ وبعض العلماء يعزون اصحابهم ومعارفهم بمثل القول المتقدم ذكرهُ قولاً وكتابة ولعلَّ هذا سبب كرهِ الآباء للبنات.

اما زيارة القبور المقصود منها التذكر بمن سلف والترحيم عليهم والتصدق على المساكين استراحاماً لهم. فهو عند الفقراء جارٍ على وجهٍ يخجل من ذكرهِ اذ انهم يقيمون ليلاً ونهاراً على المقابر طابخين وآكلين وشاربين وقد احضروا معهم الاولاد

والنساء والفرش والاغطية على عربات النقل او على ظهور الحيوانات وفي ذلك دليل على ان لا احترام عندهم ولا اكرام لمدافن الموتى وكفاها امتهاناً انهم جعلوها اشبه بفنادق السياح يجلسون فيها فتمثل لهم انواع العاب "الحواة" وتعرض على اذهانهم اقوال "الادبتية"

والمقابر في القطر المصري كثيرة لا تكاد تخلو منها قرية حقيرة وفي القاهرة وحدها ست "قرافات" لدفن الموتى وكلها خارج المدينة وهي قرافة "السيدة . والامام . وباب الوزير والمجاورين . وقايتباي . وباب النصر" وجميعها أُعدت منذ ايام الفتح لدفن اموات المسلمين واوقفت على ذلك بحيث لا يصح فيها تصرف بيع ولا شراء فيذهب اليها الاهالي في ايام معينة من السنة مثل ايام العيدين ويوم اول جمعة من رجب ويوم نصف شعبان وايام الجمع على مدار السنة لمن توفى لهُ اهل او اقارب ولم يحل عليهم الحول . يتعهدها المرء فيراها مأوى لجماهير كثيرة من انحاء العاصمة وغيرها من المدن من جميع طبقات الشعب الاسلامي على اختلاف الهيئات والازياء من غني وفقير وغرض الجميع زيارة قبور موتاهم وحبذا هذه الزيارة لو كانت وفق الشرع الشريف او لو كانت مجردة عما نهى الشرع عنهُ وعمل الكل بما يعود على الاموات بالبر والاحسان ذاكرين ما قالهُ ذلك الفيلسوف الحكيم العربي

خفف الوطأ ما اظن اديم الارض الاَّ من هذه الاجسادِ
وقبيح بنا وان قدم العهد هوان الآباء والاجدادِ
سر ان استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العبادِ
رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحم الاضدادِ

نعم حبذا ذلك لو خلا من معايب اللهو واللعب والقذف باقبح الشتائم

وارذل الاشارات . حتى ان " القرافات " تكاد تكون مجتمعاً يغشاهُ لفيف الشحاذين اصحاب الامراض والعاهات . ومنزلاً لعصابات المتشردين واللصوص كلٌّ يحتال على اخيهِ لاجتناء الصدقة منهُ وهو لا يستحقها . ولامندوحة لنا عن ذكر شيءٍ من اعمال الحفارين " التربية " وهم الذين يحفرون اجداث الموتى ويوارونهم التراب وقد ورثوا هذه الحرفة عن آبائهم واجدادهم ولهذه الطائفة اعمال مرذولة وامور تجلب السخط عليهم من جميع طبقات الامة اذهم الناهبون السالبون الذين يتلقفون ماتصل اليهِ ايديهم ويوزعونهُ سهاماً بعضهم على بعض بعد ان يريشوا في قلوب منكسري القلوب من ذوي الميت سهاماً لا تشفى جراحها الى يوم العرض . فان الجنازة لاتصل اليهم محمولة على اعناق الرجال مشيعة بدماء العيون ووراءها النساء يبكين وينحن بما تتفطر لهُ الاكباد ويذوب منهُ قلب الجماد إلا يبدأ هؤلاء التربية بطلب اجرتهم بالمنازعة والخصام بما يخمد جذوة الحزن على الميت "ولا يخمد جذوة الحزن على الميت الأشيءٌ أصعب منهُ" ويحل محلها الغضب اولاً ثم الاسف ثانياً ثم الحزن مع الغيظ على ما ينال الاعراض من الشتائم والقذف والكلام البذيء لانهم اذ لا يرضون بالقليل ولا بالجزيل من الاجرة يضجون ويجلبون ويصيحون ويصخبون ويوغلون في عرض ما عندهم من بضاعة سفالة الاخلاق وحطة الشأن فيقع ولي امر الميت بين مصيبتين مصيبة اولئك الطماعين وهي شديدة على النفس الابيَّة ومصيبة الخجل من اخوانهِ واصدقائهِ المشيعين معهُ وهي اشد وقعاً في مثل هذا الحال . وهو لا يرضيهم الاَّ اذا افرغ جيوبهُ امامهم . فاذا تيقنوا ان لاسبيل الى الزيادة رضوا بما أخذوهُ ولهم عليهِ الفضل . وليس لهؤلاء اجرة معروفة ولا جعل معين فكلما رأوا الخجل يزداد ظهوراً على وجه صاحب الشأن زادوا لجة وجراءة وعلى قدر مايزيد لهم الاجرة ليترضاهم

ينفرون منهُ كأنهُ لم يدفع لهم شيئاً . وقد تدفعهم الجرأة والقحة في اكثر الاحيان الى ان يمسوا كرامة الميت بالشتيمة والقذف . تلك حال "التربية" عند وقوفهم على قبور الاموات وهو الموقف الذي يجب ان يكون منزهاً عن كل خصام على حطام الدنيا . وهي حال قد شاهدناها وعرضت لنا في هذه السنة ثلاث مرات وكثيرون غيرنا يشاهدون مثلها كل يوم بل كل ساعة ما دام "الموت طالبٌ حثيثٌ لا يفوتهُ المقيم ولا يعجزهُ الهارب"

وفي الظن انهُ لو كان المقام مقام شكوى واذنت الحالة للناس في رفع دعاوٍ واختصام الى البوليس والنيابات والمحاكم لاقتضى لنا عشرة امثال ما عندنا من رجال البوليس والمحاكم لفصل تلك القضايا والحكم فيها . ولكن المقام مقام احترام وفي الوجوه بقية حياة وخجل تحول دون شكوى وليّ ميت رجلاً دفن لهُ ميتهُ . ولما كان الامر على ما ذكر وكل يوم تشعر الامة باجمعها بهذا الالم ولاسيما الفقراء الذين يتجرعون اكثر من غيرهم غصص التقريع والتنغيص ويهانون على مسمع من نسائهم واولادهم واصدقائهم آن للامة باجمعها ان تطالب رجال الحكومة بالضرب على ايدي اولئك الطغام الاوباش ضربة تعلمهم قليلاً من الادب وجزءاً صغيراً من مراعاة الانسانية ولها الحق بهذا الطلب ما دامت الحكومة هي المسؤولة عن راحة الشعب . وهي القادرة على كبح جماح كل معتدٍ يعبث بأقدس شيء لدى الناس ويهين الكبير والصغير بلا موجب سوى قلة الادب والاستطالة على عباد الله . وليس من وسيلةٍ تصلح بيننا وبين من لا مفر لنا من وقوعنا في ايديهم يوماً ما الا ان تجمع الحكومة رجال هذه الطائفة الباغية فتنتخب منهم اهل استقامةٍ وادب وتسن لهم لائحة موافقة وتعين لهم رواتب شهرية يتقاضونها من خزينتها وتفرض في رسماً يسد تلك الرواتب او يزيد عليها وتأخذهُ من الاهالي

عند اعطاء ورقة التصريح بالدفن من مكتب مفتش الصحة ومهما يكن ذلك الرسم فالاهلون يقبلونهُ بكل ارتياح اذ يتخلصون بهِ من تلك المعاملة الوحشيَّة والاطماع الاشعبيَّة ويقوم التربية بوظائفهم ولاجناح على من شاء ان يدفع لهم شيئًا على سبيل الهبة من الاهالي . وبهذا تلجم السنتهم فلا يعود في وسعها الانطلاق على الناس بالقدح والسباب . والبذاءة التي يندي لسماعها جبين الآداب ولا نظن الحكومة تغفل مثل هذا الاقتراح ولنا في اهتمام عطوفة ناظر الداخلية الاكرم وسعادة المحافظ ما يحقق لنا الرجاء وينيلنا الاصلاح المطلوب . اذ لا يصح ان يكون لأحقر حرفة مثل "مساحي الاحذية" "والحمارة" "والعربجية" لائحة يجرون عليها ولا يكون لهؤلاء "التربية" قانون ولا لائحة ليعلم الناس حقيقة من سيلحدهم ويلتقطهم فرادى ومثنى الى ملاقاة رب كريم مستقبلين من الكرام البررة "يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضيةً فادخلي في عبادي وادخلي جنتي"

الاوقاف الاسلامية وحاضرها

قد رأَينا بعد اتمام فصول كتابنا هذا وترتيبها ان لا بد للقارىء عند وصوله الى كلامنا عن الفقراء ان يسأَل عن حالة الاوقاف الاسلاميَّة المحبوسة على ما فيهِ تيسير بعض الضنك الموجودين فيهِ ولذلك نختم كتابنا بذكر حقيقة حاضر الاوقاف حتى يتبين للقارىء مقدار نفع الفقراء من ايراد اوقاف أَقل ما يقال عنهُ انهُ يزيد عن ايراد كثير من الممالك الصغيرة في العالم[1] ومما سنذكرهُ يُعلم

(١) نذكر لك واحدة وهي مملكة سان مارينو في جبال ايطاليا في الجهة الشمالية الشرقية منها عدد سكانها ١٥٠٠٠ نفس ودخلها يقارب مدخول ديوان الاوقاف المصرية وغيرها كثير تراجع في قوائم البلدان المطولة

علاقة الاوقاف بسكان القطر ونفعها من عدمهِ . فيقلان مما عندهما الحبيب المغابط والعدو الحاسد ويترك محبوا الاصلاح الآن النظر في زيادة الايراد وتقصانهِ ما دام باب الانتفاع بهِ مسدوداً

الغرض من الاوقاف

الغرض من الاوقاف امداد ذوي الضعف الذين عجزوا عن الكسب ووقف بهم الزمن عن العمل لعاهة او آفة . ونشر العلم والادب والدين وحبذا التعهد والغرض

واول من نظر الى الاوقاف المصرية نظرة حكيم عاقل وأصدر امرهُ بتشكيل ديوان لها خاص هو ساكن الجنان " عباس باشا الاول " لما شاهدهُ وقتئذٍ من سوء التصرف . وقرَّر رحمهُ الله حق مرجع النظر في أمورها اليهِ ولمن يتولى الخديوية من بعدهِ وقد مضى من عهدهِ للآن ما يزيد عن الاربعين سنة والاوقاف يغل سنوياً مبلغاً كبيراً كلهُ مرصود لعمل الخير حسب شروط الواقفين التي حصرت الحق في ديوان الاوقاف هذا . وجعلت لهُ حق الاشراف على كل ما هو موقوف من املاك وعقارات في المحافظات والمديريات وحق اتخاذ الطرق الشرعية المؤدية الى تحسين الاطيان والعقارات ونمو ريعها . وهو متولٍ ذلك برضى الامة الاسلامية . فلذا كان الواجب على من ولي الامر ان لا يألو جهداً في اتخاذ الذرائع لانجاح ما أُمنتهُ الامة عليهِ طارفاً كان او تليداً . ولبعض الناس حق على الاوقاف مثل الاشراف وغيرهم وهذا الحق يختلف باختلاف درجاتهم . فمنهم المتصل نسبهم بالرسول " صلى الله عليهِ وسلم " والعلماء والفقهاء الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة ومنهم الصوفية والفقراء والعميان والمرضى والمجانين وما اشبه ذلك حسب شروط الواقفين التي قصدوا بها التقرب والزلفى

الى الله تعالى . ولعمارات الاوقاف حق وللمساجد حق تجديدها . حتى ان للمصابيح حق معلوم اذا كسرت ومثل ذلك يقال عن المكاتب والمدارس

هذا هو الغرض من الاوقاف وهذا هو الحق الذي لهُ والواجب الذي عليهِ اذا عرفنا ما ذكر عن الاوقاف لزمنا البحث عن حالتهِ الحاضرة لنرى هل ديوان الاوقاف قائم بالغرض الذي جُعل لاجلهِ وافاد او لم يفد فنقول

بلغ ايراد ديوان الاوقاف في سنة ١٨٩٩ ٢٣٠٦٦٢ جنيه والمصروف ١٨٢٧٧٧ جنيه ونسبة المنصرف منهُ على الابواب الآتية هكذا ٤١٢٩٣ جنيه على مستخدمي ديوان العموم وفروعهُ اي ١٨ في المئة من الايراد العمومي

١٠٢٧ على مستخدمي لجنة الآثار اي ٢/١ في المئة من الايراد العمومي

٤٦٢٤٤ جنيه على المصاريف العقارية والزراعية بما يشمل مستخدميها الداخلين الهيئة والخارجين وغير ذلك من عوائد املاك وحفظها وترميمها ومال وعشور اي ٢/٢٠١ في المئة من الايراد العمومي

٢٨٧٨٥ جنيه على المساجد والاضرحة اي ٢/١٢ في المئة من الايراد العمومي

٢٧٥٢٥ جنيه على التعليم منها ٦٥٩٢ جنيه مقررة لنظارة المعارف نظير ادارتها لمكاتب الاوقاف ومنها ٥٠٠ جنيه لمكاتب يديرها الديوان نفسهُ و١٤٤ جنيه اعانة لمدرسة دمياط الاهلية وهذا المبلغ معهُ الريع الناتج من تفتيش الوادي مع فرضنا اياهُ انهُ عشرين الف جنيه اي ١٢ في المئة من الايراد العمومي

٦٨٠٠ جنيه على التكايا سواء كان يديرها الديوان بمعرفتهِ او بمعرفة مشايخها اي ٤/٣ ٣ في المئة من الايراد العمومي

١٥٦١٠ جنيه على عمل الخير مثل مرتبات واعانات للكتبخانة ومعاشات

ومصروفات متنوعة اي ٦ في المئة من الايراد العمومي

١٠٦٨٠ جنيه على اقامة شعائر اي ٤ ١/٢ في المئة من الايراد العمومي

هذا هو ايراد ديوان الاوقاف ومقدار صرفهِ على الابواب المتقدمة. ولعمري انهُ يظهر من اول وهلة ان الديوان يصرف على جماعة المستخدمين الذين يأكلون خبزهم كما تعودوا جالسين على الارائك في ظلال السجوف خوفاً من حرارة الشمس والسعي في معترك الحياة أعظم مما يصرف في السبل التي أُوقفت عليها هذه المنافع من عمل الخير ولبيان ذلك نأتي على حالة كل باب من الابواب المتقدمة فنقول

" مستخدمو ديوان العموم وفروعهُ "

هم أظهر عضو في جسم الاوقاف اهل الحل والعقد فيهِ. وهم اكثر المستخدمين علاقة بمن يتصل امرهُ بالاوقاف ويسوءنا ان نذكر هنا كثرة الشكوى منهم ومن اعمالهم وقلة الرضى عنهم ويسوءنا ايضاً ان نقول بانحطاط معارفهم وان اغلبهم استخدم في الديوان وكان الفضل باستخدامهِ للمحسوبية والقرابة عند من سلف وتولى نظارة هذا الديوان. ومع ذلك هم ارقى خدمة هذه النظارة واحسن عملاً من امثالهم في المحافظات والمديريات. ولا بد ان سمع القارئ ببعض اعمال تسيء الظن فيهم. اما عددهم فعلى ما يقول الخبيرون زيادة عن حاجة الديوان ولذا يقول العارف بامرهم انهُ يلزم لهم نظرة من اولي الامر. واخرى يمتنع بها عنهم ما يرمون بهِ من التهاون بالاعمال ومن تعطيل الامور وتصعيبها ولو كانت منجزة سهلة

" مستخدمو الفروع الاخرى "

هؤلاء مستخدمو المحافظات والمديريات واغلب اشغالهم بعد العقارات

المزروعات وهم يعدون في الطبقة الثانية بعد مستخدمي ديوان العموم . الاّ انهم اكثر منهم فائدة ولو كانوا اقل منهم مرتباً . غير ان في سير بعضهم ايضاً ضرباً من الفوضى وضعف الادارة والكسل وكثيراً ما تؤدي بهم اطماعهم الى ما فيهِ دمار كثير من الاوقاف المزروعة والعقارات المؤجرة وسوابق ذلك كثيرة يعلمها الديوان نفسهُ

" المساجد والاضرحة والزوايا ومستخدموها "

قال المرحوم علي مبارك باشا في خططهِ الجديدة اما عدد الجوامع الآن في مصر فهي مائتان واربعة وستون جامعاً اه .

والله اعلم بعدد الجوامع في باقي داخليَّة القطر وبعدد الزوايا المبثوثة في انحائهِ التي تقام فيها الصلاة . وبعض هذه الجوامع تابع مباشرة الى ديوان الاوقاف وبعضها تابع للاوقاف الاهليَّة . يصرف عليها وعلى مستخدميها مما خصص لها من الريع الموقوف عليها وبعضها يمتد تاريخهُ من عهد دخول الاسلام في مصر كجامع "عمرو" وبعضها تاريخهُ من سنتنا الماضية او الحاضرة ولكي يكون القارىء على علم من حقيقة حالتها وحالة مستخدميها نقول

حالة الجوامع كحالة الافراد تسعد حيناً وتشقى احياناً حتى تندثر معالمها وتعفو لعدم اعتناء الخلف بما تركهُ منها السلف وكرور السنين وتقلب الايام اوجد كثيرين ممن كانو ياخذون من عمارة هذا الجامع وانقاض ذاك المسجد ومخلفات تلك الزاوية ليبنوا بها عمارة أُخرى لهم يسمونها باسمائهم فينقرض عمل الاصل ويظهر عمل الفرع وأنت لو سألت الاعمدة في المساجد لانبأتك عن كثرة تنقلها من مواضعها في سنين عدة . والميل لحب الافتخار في من حكم الديار المصرية محى أثر الكثير من الجوامع فهدمت بالمرة او بقيت ذكراً ناطقاً بسوء عمل

الخلف لما تركهُ السلف . غير انَّا لا ننكر ان بعض هذه المساجد حفظت ورممت أخيرًا وبالاخص الاثرية منها اذ لولا زخرفها وفخامتها لمحيت بالمرة كما محي كثير منها وكما محيت آثار دور التعليم وملاجئ الخير والمستشفيات التي كانت بجوانب الجوامع المذكورة في كتب السير واسفار التواريخ ولا يزال بعض تلك الجوامع مهملاً امرهُ متروكًا يعمل فيه ضد الغرض المنشأ لهُ كجامع الظاهر[1] وجامع قلاوون وغيرهما

الاول منهما خالف القصد الذي بني لاجلهِ واضحى مخزنًا ومذبحًا ومخبزًا توقد فيهِ النيران بدلاً من اقامة الصلاة . وثانيهما تلعب فيهِ الاولاد وتمرح وقاعتهُ مؤجرة مخزن آواني النحاس وبضائع التجار وليس فيهِ مكان لاقامة الصلوات سوى غرفتين مع ان سعتهُ عظيمة ولا يبعد ان يصير مصير الاول بعد زمن . وأنى يرضى المسلمون عن الاول وهو بين مبانٍ فخيمة باذخة جميلة ولا يمرّ

(١) "جامع الظاهر" قال المقريزي رحمهُ الله . هذا الجامع خارج القاهرة بالحسنية انشأهُ الملك الظاهر بيبرس البندقداري العلائي وكان موضعهُ ميدانًا يعرف بميدان قراقوش وكان منتزه الملك ومحل لعبهِ بالكرة. فلما اهتم بعمارتهِ اختارهُ فرسم الجامع في قطعة منهُ ورسم بان يكون بقية الميدان وقفًا على الجامع بحكر (تأمل ما حولهُ الآن) ورسم بين يديهِ هيئة الجامع واشار ان يكون بابهُ مثل باب المدرسة الظاهرية وان يكون محرابهُ قبةً على قدر قبة الامام الشافعي "رضي الله عنهُ" وكتب في وقتهِ الكتب الى البلاد باحضار عمد الرخام وكتب باحضار الآلات من الحديد والاخشاب النفيسة برسم الابواب والسقوف وغيرها وولى عدة مشدين على عمارة الجامع وشرع في العمارة سنة ٦٦٥ هجرية ثم سافر في سنة ٦٦٦ سافر السلطان الى بلاد الشام فنزل على مدينة يافا وتسلمها من الافرنج وهدم قلعتها وقسم ابراجها على الامراء واخذ من اخشابها جملة ومن الالواح الرخام التي وجدت فيها ووسق منها مركبًا سيرها الى القاهرة ورسم بان يعمل من ذلك الخشب مقصورة في الجامع والرخام يعمل في المحراب فاستعمل كذلك وكملت بناية الجامع سنة ٦٦٧ اه . فتأمل حاضرهُ الآن

عابر سبيل بقربهِ إلاَّ ويأسف على ما حاق بهِ . ولو درى بانيهِ رحمة الله عليهِ بانهُ سيأتي يوم يصبح فيه الجامع مخبزاً لما وضع فيهِ حجراً

"خدام الجوامع"

خدام الجوامع جماعة ممن جمعتهم جامعة الفشل في تعلم علم الدين ولم ينجحوا فيهِ ولكسلهم وخمولهم وحبهم للحياة خالية من التعب وأكل الخبز بلا تعب ولا عمل التزموا مساجد الله باسم خدمة . فاحتكروها او التزموها قل ما شئت عنهم يورثونها ابنائهم من بعدهم واحفادهم من بعد ابنائهم . وهؤلاء خدَمة المساجد تُدفع لهم مرتبات قليلة من قبل ديوان الاوقاف لقاء خدمتهم فيها ومباشرة نظافتها ومع كل فترى كثيراً من الجوامع المذكورة مهملة فيها شروط النظافة بالمرة . ونحن نقص عليك شيئاً من حالة الجوامع الكبيرة ونترك لك القياس عليها في المساجد الصغيرة . نذكر لك جامع ابنة البتول وبنت ابنة الرسول وبنت ابن "عمهِ رضوان الله عليهما جميعاً" ففي كل يوم احد من كل اسبوع تُفرش ارضهُ بقشور "الفول" وفتات الخبز وجذور "الكراث" وهنـاك يمرّ المار حافياً فيزلق بالاوساخ ويجد بفضل خدمة هذا المقام الشريف عكس الآية الشريفة "فيهِ رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين" فيهِ يسحب البق بعضهُ بعضاً على جدرانهِ من فضل الجالسين مطمئنين وهم بثياب رثة ولباس قذر نتن وليس من يزجرهم او يجبرهم على النظافة اومن يعمل بالحديث الشريف "ابنوا المساجد وأخرجوا القمامة منها فمن بنى لله بيتاً بنى الله لهُ بيتاً في الجنة" يتعلقون باذيال الزائر عند الزيارة ويتجاذبونهُ من كل جانب رجاء ان يعطيهم شيئاً لله وغرضهم ان ينشلوا منديلهُ من جيبهِ وما شاكل ذلك وما من رادع يردعهم ولا عجب ان يكون ذلك كذلك ما دام خدمة الجوامع يدركون معنى "وثيابك طهر

والرجز فاهجر " ولا يعملون . او كيف يرجى ممن جمعتهم جامعة الفشل رجاء وهم اذا ارادوا الكنس كنسوا بسعف النخيل مع علمهم ان ذلك لا يزيل وسخاً بل يزيد الطين بلّة وهم لاهون عن مباشرة النظافة باستقبال الوفود من اصحاب النذور وملاقات الاصحاب والاحباب بالطبع تلهي المحب

وجامع السيدة نفيسة رضي الله عنها يأتي اليهِ الناس من جهات متعددة بحجة الزيارة والتبرك غير ان بعضهم يتفقون مع خدمة الجامع للمنامة فيه ولا حاجة اللاطالة وغير ذلك في مصر من امثال هذه الجوامع الشهيرة يجري فيها الامور لمخالفة للسنة والدين والادب والنظافة على خطٍ مستقيم فهل لا يعلم بذلك ديوان الاوقاف او يمكنهُ ان ينكرهُ . او لا يعلم ان في جامع الامام الحسين "رضي الله عنهُ" يباع ويشترى ما يباع ويشترى في الاسواق من قصص وحكايات ومساوك وسبح وسعوط وكحل وعاب داخلها الافيون . ذلك كلهُ يراهُ خدام الجوامع الكبيرة امثال من ذكرنا ويتعامون عنهُ ما دام الود بينهم متواصلاً. فيتركون البائع على هواهُ مع علمهم بقولهِ تعالى "أفرأيت من اتخذ إلههُ هواهُ" هذا وفي علمنا اكثر مما ذكرنا فنحول الانظار اليهِ . واما الجوامع الصغيرة فليس لها اعتناء بالنظافة على الاطلاق . واذا سألك سائل ما الذي لا يغيرهُ الدهر ويخالف المثل " الدهر بالناس قلب" قل لهُ حصر هذه المساجد التي من اليوم الذي تفرش فيهِ لا تقام منهُ ابداً اللهم إلاَّ ما يعلق منها في ارجل المصلين وسببهُ ان من يستخدم في هذه المساجد هم من الفقراء المتقدمين في السن وبعضهم من العميان وياخذون المرتبات القليلة جداً . حتى ان المكلَّف منهم بالاذان وان يكُ يصعد خمس مرات في اوقات مختلفة متعددة من النهار والليل حتى يبلغ عنان السماء يعطى ثلاثين غرشاً شهرياً . والمكلَّف بملء الميضة والحلايا مستقياً من البئر يعطى كذلك

وعليهِ ان يباشر نظافتها وشؤون خدمتها؟ فكيف يعتني امثال من ذكرنا بالنظافة ويعملون بالآية الشريفة للمصلين الذين لا تصح صلاتهم الاَّ طبق ما جاء فيها "يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم للصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين الآية" وبعضهم لو تركوا خدمة الجوامع وعملوا مع الفعلة لتناولوا اجرة لا تقل عن المئة والخمسين غرشاً في الشهر او كيف يأتمن امثال هؤلاء على ما يصرف لهم من الزيت ونحوهِ لانارة هذه المساجد وهم لا غنى لهم عن بيعهِ ليعيشوا بثمنهِ وفي باب الشعرية بمصر زيات يبيعهُ خدمة الجوامع زيوت الجوامع ليقتاتوا بثمنها. وياليتهم يعرفون ثمنهُ فيقبضونهُ ولكنهم يبيعونهُ بأقل من نصف الثمن ومثل تفريطهم في الزيت تفريطهم في انقاض الجوامع ومخلفاتها من من شبابيك وحجارة فسيفساء . وبعض هذه الجوامع الصغيرة ايضاً قد تحولت لضد الغرض المنشئة لاجلهِ وعددها من الاسف كثير في كل بلد وحي نذكر لك منها الجامع الذي في اول باب البحر في رأس حارة "درب الجامع" فان هذا الجامع وان كان ايرادهُ على ما يقال يبلغ العشرة جنيهات شهرياً . فانهُ من مدة قريبة أُجر لبعضهم وعمل "بوظة" يجتمع فيها الاوباش من رعاع القوم . ولما تشكى الجيران "واغلبهم من النصارى" أُبطلت منهُ البوظة وجُعل مغلقاً للخشب. ويوجد ايضاً في الجهة المذكورة زاوية وقف العنانية أُجر بعضها مخزناً لاحد الاروام فجعل ميضتها مخزن تصافي الخمور وقد قُدمت شكوى في اواخر سنة ١٩٠٠ للديوان من بعض سكان تلك الجهة المسلمين فلم يُلتفت اليها . وفي جهة الصليبة وجهات بولاق جوامع عدة بعضها فيهِ ورش للحدادة والنجارة وبعضها لعمل الحصر ولخزن اصناف التجارة من سمن وعسل . كما ان بجانب البوستة في الازبكية جامعاً فيهِ اسطبل لسواري بوليس العاصمة . هذا ولا يذهب عن فطنة القارىء ما تقدم

بيانهُ من عمل الزار في بعضها . ذلك حال الجوامع وحال خدمتها وهو القول الحق الذي لا مراء فيهِ نذكرهُ مع الاسف الشديد . ولو كان ذكرهُ يؤلم عواطف البعض من رجال الاوقاف

" الاضرحة وحالتها "

قال المرحوم علي مبارك باشا . الموجود الآن بالقاهرة من الاضرحة مائتان واربعة وتسعون ضريحاً بعضها داخل مزارات ولهُ خدمة والبعض داخل بيوت وفي زوايا الحارات [1] ونحن نترك الكلام عن الاضرحة الموجودة في البيوت والحارات اذ الله اعلم بحالها ونقتصر على المزارات التي لها خدمة مخصوصة من طرف ديوان الاوقاف فنقول . انهُ لسبب تعيين الاوقاف مستخدمي هذه المزارات من جماعة المشايخ الجهلة غير حسني السلوك قد اصبحت محال هذه المزارات كبيوت الاصنام ولسبب جهل مستخدميها شروط الزيارة الشرعية يتركون الزائر يتبرك بالاضرحة و يتوسل بمن فيها الذين صعدت ارواحهم لبارئها وبقيت عظامهم البالية (وفي حكم العقل ان تلك العظام لا تغني شيئاً) وكذلك كانت عبدة الاصنام يفعلون تماماً [2] ولو كان الله امر المؤمنين بقولهِ "واذا سألك عبادي عني فاني قريب أُجيب دعوة الداعي" الآية يحصل ذلك ويراهُ خدمة الاضرحة من الزائرين

(١) خطط جزء اول وجه ٨٩

(٢) ومما يزيد الانسان اسفاً تهاون الكثير من علماء الدين بالانكار على ما يفعلهُ هولاء مع علمهم ان هذا ان لم يكن شركاً فقريب منهُ وهم يشاهدون هذا باعينهم و يسمعون باذانهم ولا يتحركون ، اذا صح السكوت هذا فعلى اي شي يتكرون اصلحهم الله هل غاب عن علمهم ان الاسلام ما جاء الاَّ لمحاربة هذه الاعمال الوثنية وتطهير الناس منها فكيف يرضى رجال الدين بان تفعل هذه الاعمال المنكرة وهم المطالبون بازالتها وتفهيم الناس انها من الشرك الذي لا يجتمع مع الدين وهذا الواجب ملقى على عاتقهم لا يمكنهم التنصل منهُ مطلقاً

وبالاخص من النساء وهنَّ في داخل الاضرحة حيث يتوسلنَ اليها كآلهة تفعل ما تشاء ينظرونهنَّ وهنَّ يهزئن الاضرحة ويصحنَ بالفاظ الكفر ولا يمنعونهنَّ بل يصرحون لهنَّ بعمل ما يريدون عملهُ . ولقاء مبلغ تافهٍ يتركونهنَّ يكنسنَ بمناديلهنَّ ارض المقام ويقلبنَ حصيرهُ على من يردنهُ صارخات بالاستغاثة بالضريح وصاحبهِ دون الله الآمر رسولهُ والمؤمنين بقولهِ "قل لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعاً" الآية وكيف يلتفت الخدم الى واجباتهم وهم في شغل شاغل مع بعضهم إما في مشاجرة او سباب ومخاصمة

"تكايا الاوقاف"

الغرض من التكايا ايواء ذوي العاهات والاسقام والامراض من فقراء المسلمين . وغاية مايمكننا القول عن تكايا الاوقاف ان اكثر من فيها الآن هم من جماعة التزك الاصحاء الابدان الاقوياء العضل يراهم الرائي في تكيتي طره بمصر والقباري بالاسكندريةِ فيعجب لصحتهم كما يعجب السياح الذين يتفرجون عليهم. وبالاخص لو علم ان امثال هؤلاء لهم الحق بالاعتناء بهم وتوفير شروط المعيشة لهم كالعجزة والضعفاء والمنقطعين الذين هم في الحقيقة المقصودون بهذا الخير من اصحاب هذه المبرات وقعد بهم الدهر فاصبحوا في الفقر والخصاصة ومما يلاحظ على تكايا الاوقاف غير ما تقدم انها تحتاج للنظر ومضاعفة العناية من اولي الامر لتغل أيدي الخدمة عن الطمع في ارزاقهم . نعم وان كانت نظارة الاوقاف اظهرت اخيراً بعض اعتناءٍ بشؤون التكايا ولكن لا تزال الشكوى كثيرة وخصوصاً من الصعوبات التي تقام امام الفقراء الذين يرغبون الانضمام الى التكايا . اذ هؤلاء لا يقبلون الأربعد كثرة التردد بين المحافظة والاوقاف على انهُ ينبغي أن يُلاحظ في التكايا انها ملجأ العجزة والفقراء الذين لا يقدرون على الكسب فلذا يلزم ان يكون لها

نظام لا يُتعدى حدودهُ ومع ان التكايا التي من هذا القبيل قليلة عندنا فلا يزال نظام الملاجىء التي انشأها ابناء الطوائف الاخرى في هذا القطر وسواهُ أرقى من نظام تكايا الاوقاف واكثر سعياً في سبيل الاجر والثواب . ولو كنا احوج الكل الى الاكثار منها بالنسبة الى كثرة عدد العجزة والضعفاء منا

"ما يصرفهُ الاوقاف على التعليم"

لدى ديوان الاوقاف اموال كثيرة مخصصة للمشروعات العلمية والادبية . أوقفها موقفوها "رحمهم الله" على اخوانهم في الانسانية إعلاءً لمنار العلم والادب . تبارى السالفون فيها ولم يقصروا بل رغبوا في وقفها احياءً لبث التعليم ومكافأة رجال العلم وعلماً منهم ان الامة لا تبلغ المقام الذي ترومهُ من العزة والمنعة الاَّ اذا استنارت عقول افرادها بانوار العلم والادب وكثرة عدد العلماء والمتعلمين ودليل ذلك الاوقاف الكثيرة التي حبسوها على هذا الخير والتي يبلغ ريعها من ٣٠ الف جنيه الى ما يقرب من الاربعين الفاً كلها موقوف على بث العلم بين الفقراء الذين هم في حاجة كبرى الى التعليم والارشاد . وكفانا ان نذكر منها تفتيش الوادي وزوائد المساحة في المديريات التي اوقفها المرحوم الخديوي الاسبق "اسماعيل" والحصص التي آلت الى بيت المال وغيرها مما يُسأَل عنهُ ديوان الاوقاف . ومن الغريب انهُ قد عمت الشكوى حتى اتصلت بسمو مولانا الخديوي المعظم حفظهُ الله وشهد بقصور ديوان الاوقاف وعدم قيامهِ بغرض موقفيهِ . فلذا لم يسعهُ حفظهُ الله الاَّن شاور وزراءهُ والكثيرين من نبلاء الامة ثم امر فضمت تلك الكتاتيب التي كان يديرها ديوان الاوقاف الى نظارة المعارف وتقرَّر ان ما يؤول امرهُ منها في المستقبل يناط بنظارة المعارف حتى يكون امر التعليم كلهُ تحت ادارة واحدة وقد تحسنت امر الكتاتيب هذه نوعاً ما كما تقدم لنا بيانهُ . وان كان ديوان

الاوقاف قد عارض في ذلك معارضة شديدة شأن كل مصلحة تحافظ على سمعتها وترغب في عدم تقليل اختصاصاتها. ولكننا نرجع فنقول ان ديوان الاوقاف لم يبسط يده على التعليم ليكون ينبوعاً مساعداً على انتشار العلم وتعليم النشأة الحديثة الفقيرة التي هي في حاجة الى التعليم. ولعمر الحق ان مبلغ ٢٧٥٢٥ جنيه من ايراد قدره ٢٣٠٦٦٢ جنيه مبلغ قليل جداً على امة مثل امتنا تريد ان تباري الامم الحية المتقدمة عليها

"ما يصرف على عمل الخير"

اما ما يصرفهُ الاوقاف على عمل الخير فلا ندري ما هو. اللهم غاية ما يمكننا ان نقولهُ انهُ ربما يقصد بذلك ما يعطيهِ لجماعته من المستخدمين الذين يستولون على ما يقرب من ربع الايراد او ما يصرفهُ وهو مبلغ ١٥٦١٠ جنيه فان من هذا المبلغ يُصرف اعانة للكتبخانة ومعاشات لافراد قليلين نعم اننا نجهل حقيقة ما في ذمة ديوان الاوقاف تماماً لعمل الخير. ولكن العقل يرشدنا ان في ذمة ديوان الاوقاف لعمل الخير شيءٌ كثير ودليلنا عليه النظر لتبرع السلف الصالح وما هو مكتوب في سير الخلفاء والامراء الذين كانوا يوقفون من سعتهم ما يضمن للفقراء والعجزة راحتهم في حال ضيقهم وشدتهم فكم من خليفة وسلطان واميرٍ بنى بجانب الجامع المستشفى رحمة منهُ وحناناً على امتهِ من بعدهِ. ومن ذلك وقف اقامهُ اخيراً الخديوي الاسبق "اسماعيل" لانشاء دار للعجزة يراها المطلع ذات شرط في وقفية المذكور وخصص لها اربعة آلاف جنيه وللآن لم يسمع احد ما هو غرض الاوقاف من هذا الشرط. ولو فتشنا الاوقاف نرى مثل هذه الشروط أشياء كثيرة كلها في ذمة الديوان المذكور بخلاف المبالغ التي لبعض المستحقين وقد طال عليها الأمد ولم يطالب احد الديوان بها والمرجح عقلاً ان اكثرهم ماتوا ولا وارث لهم وعلى ذلك يمكننا القول

ان في استطاعة الديوان ان يعمل بهذه المبالغ عملاً يخفف به بلاء العجزة والمساكين ممن لا سند لهم ولا معين ولو لاولاد وبنات خدمة الجوامع او لجماعة الازهريين الذين هم لكثرتهم في حاجة الى مستشفى وكيف لا ولنا في حادثة الكوليرا واحتياج المجاورين أقرب شاهد . فانهم اذا أُصيب احدهم بمرض تعدى الى غيره بسهولة . ولا اعتراض في ذلك لو اخرج الاوقاف ما ذكر من حيز القول الى حيز العمل . فان ذلك اولى بمجدنا ومجد الذين اوقفوا عمرهم على تعليم قرآننا وديننا وليس بشيء اصعب على الحر من ان يرى ذلك المتعمم بالعمامة والمرتدي بالطيلسان والمتزي بزي امة تنفر من المن والاذى يخرُّ بين يد الكابزي او الماني ليفتح لهُ خراجاً في قلبه وما في قلبه الاَّ محبة خالصة وسريرة صالحة بعيدة عن البغضاء بعد الارض عن الجوزاء وفي الحديث الشريف "طوبى لمن اهدى لكم باصبعة"

"قضايا الاوقاف"

بما ان للاوقاف حقوقاً وعليه واجبات ولسبب تنوع اختصاصاته في املاكه وعقاراته ولغرض استثمار موارد ايراده ترى ديوان الاوقاف كثير المشاكل كثير القضايا وهي اما لهُ او عليه واغلب التي تقام عليه من تصرفات مستخدميه فلهذا السبب اتخذ الديوان لهُ جملة محامين مستخدمين لديه برتبات باهظة كي ينظروا في دعاويه ومشاكله واوجد مستشاراً قضائياً خاصاً لهُ "وهو الوحيد الذي يماثل المستشار القضائي في نظارة الحقانية من جهة الاختصاصات وما شاكل ذلك" والغريب في هذه القضايا ان بعضها يجري فيها التلاعب الكثير بعضهُ بمعرفة رجال الديوان وبعضهُ بمعرفة المحامين فمثلاً القضايا المختصة بجماعة الاغنياء اصحاب الجاه والنفوذ فان هؤلاء يراعون لصحبتهم مع رجال الديوان وقد تحفظ قضاياهم من سنة الى عشرة . اما المختصة بالفقراء فتظهر بمظهر الاهتمام ويأخذون اصحابها قسراً الى

المحاكم ويطالبون بحقوق الديوان واما لو كان للفقراء حقًا عليهِ فهناك المماطلة وتصعيب الامور ولو كانت سهلة واضحة مذللة وشاهدنا تلك القضية الفقيرة الكبيرة التي قامت بين الديوان في سنة ١٨٩٥ وبين فقراء العميان الازهريين وحكم لهم فيها سنة ١٨٩٧ على الديوان بدفع ٣٦٠٠ جنيه والفضل في ذلك لرجل الفضل والمروءة والنبل احمد بك الحسيني نصير الضعيف ومرشد القوي للحق . والغريب ان الديوان لا يطالب بالفوائد في قضاياهُ ولكن يدفع الفوائد التي تحكم بها عليهِ المحاكم يدفعها من امواله المجموعة من اهل البر والاحسان . وهو يحرم على نفسهِ اخذها لو اودع شيئًا من مالهِ في احدى المصارف ولا ندري الحكمة في ذلك ولا نعلم كيف يحل دفع الفوائد في عرفهِ . ولو تأملت ابواب ميزانيتهِ سنة ١٨٩٩ لوجدت لهُ في باب المصروفات ٢٤٠٠ جنيه بالقلم العريض تحت عنوان المصاريف القضائية اي ان ما يذهب على قضاياهُ ضعف ما يصرف على مستخدمي لجنة الآثار او ما يقرب من ثلث ما يصرفهُ على تكاياهُ

"خلاصة القول عن الاوقاف"

هذا وفي الختام نقول ان ماذكرناهُ عن ديوان الاوقاف الاسلاميةً انما نقصد بهِ بيان الحالة لا مس كرامة احد وان نوقف القارئ على الحقيقة التي لا مندوحة عنها ولا بدَّ منها . ولا نقصد بكل ما تقدم بيانهُ الاَّ ان نُعد في مصاف اهل الحق والحريَّة الذين بقدر ما تسعهم القدرة يدرأون الخلل باشهار الوصمات والنقائص ليجتمعوا مع امثالهم فينشطوا الى الصعود والرقي من الدركات الهابطة ولا يخفى ما في الجهر بالحق والقول بالصدق من لذة التقدم القومي واننا لا نرى ما يراهُ البعض اصحاب الهمة الفاترة من ان الستر على النقائص اولى ومن اهم الخصائص

تالله لو اتبع رجال الاوقاف سنتهُ التي وجد لاجلها وفطنوا لسر هذه الاوقاف

وما وُضعت لهُ لوجدوا من المسلمين من يعضدهم و يأخذ بيدهم والاَّ فالحاضر مشاهد من انهُ لعدم الثقة فيهِ الآن . وبسبب ما يلحق شروط الواقفين من التغيير والتبديل في اقرب زمن ترى عدد الواقفين يقل عاماً فعاماً فيتركون مخلفاتهم لابنائهم من بعدهم فتذهب اكثرها ضحية التبذير والاسراف ولنا فيما تقدم من الكلام عن حالة اولاد الاغنياء ما فيهِ عبرة للمعتبر . على اننا نودُّ لو كان الناس ينشطون للعمل ويرشدون الاشتغال بالاعمال الدنيوية النافعة كالتجارة والصناعة وتحسين الزراعة فلا يكونون عالة على اوقافهم ومتروكات آبائهم لان من اعظم الادلة على اننا امة اتكالية وجود هذه الاوقاف بيننا وحصول التنازع فيها دائماً وابداً سواء بين المستحقين او المتطاولين عليها او الناظرين اليها . وقد مضى على الاسلام قرون متوالية لم يكن فيهِ اوقاف منتشرة كما هي الآن ولم يكن الا الاوقاف الخيرية المحضة في السبل العامة لا غير وهذا يدلنا على ان السلف الصالح كان همهم وعمدتهم انما هو الاتكال على النفس بعد الاتكال على الله وهذه سيرة " الرسول صلى الله عليهِ وسلم " وسيرة الخلفاء الراشدين والخيرة من اصحابهِ والتابعين وتابعيهم تدلنا دلالة ظاهرة لا ارتياب فيها على ما نقول ونتكلم عنهُ فعسى قومنا تهزهم داعية العمل فينشطون وينبذون عنهم مطارف الكسل ويكون الانسان انساناً بنفسهِ غنياً بنفسهِ واثقاً بجدهِ لا بجَدهِ معتمداً على ما وهبهُ الله من التدبير لا ما جاءهُ من متروكات آبائهِ من الفتيل والقطمير . وهكذا الرجل يعيش اينما كان بسعيهِ واجتهادهِ قال تعالى (وأَن ليس للانسان الاَّ ما سعى وان سعيهُ سوف يرى ثم يجزاهُ الجزاء الاوفى وأَنَّ الى ربك المنتهى) صدق الله العظيم

والحمد لله الذي بنعمتهِ تتم الصالحات